المقالة الثانية

حياة أبي العلاء

قبيلته

١

ينتهي نسب أبي العلاء كما سنرى الى قضاعة وقضاعة قبيلة متشعبة ذات اطراف وغصون ، كان لها شأن كبير في الجاهلية والاسلام وقد بعد العهد باختلاف العرب انفسهم في نسبها ، فبعضهم يصلها بمعد ابن عدنان وبعضهم يرتقي بها الى يعقوب بن قحطان ، بل ان بعض شعرائها قد اجتهد في ان يتصل بعدنان إيثاراً لقرب المكان من قريش بيت النبوة والخلافة فقال جميل :

أنا جميل في السنام من معد في الذروة الحصداء والركن الاشد

ولكن جمهور العرب والمحققين من حفاظ الانساب يرون ان بيت قضاعة في معد أوهن من بيت العنكبوت وان صلتها الحقيقية انما هي لقحطان ، فقضاعة يمانية لا عدنانية . هذا الخلاف القديم مع غيره من الحوادث اشترك قبل التاريخ في تكوين طائفة من الاساطير عن رحلة

قضاعة وهجرتها من تهامة موطن بني اسماعيل الى البحرين ومنها الى الحيرة وبلاد الشام، وظننا ان انتساب قضاعة الى تهامة ليس بأقل وهنا من انتسابها الى عدنان، فان حرصها على الاتصال ببني اسماعيل الجأها الى ان تزعم تهامة أول أوطانها، والأشبه ان اول اوطانها انما هي بلاد اليمن وان سيل العرم هو الذي ازعجها عن تلك البلاد ففرقها ايدى سبا في غيرها من بني قحطان. على ان التحقيق في مثل هذا الموضوع امر لا سبيل اليه لان هذه الحوادث كما قدمنا قد سبقت التاريخ، ولئن كان علم النسب يشتمل على كثير من الحقائق النافعة فأن حظه من الخلط عظيم ولا سيما اذا بعد العهد به وتعمق في الزمان القديم. ذلك شيء لا نقصده على النسب العربي وانما نمد ظله على غيره من الانساب، فان العناية بحفظ الآباء والاجداد خصلة من خصال أهل البادية وأمم التاريخ القديم (١) تشتد كلما اغرقوا في الجهل والامية وتضعف كلما تقدموا في الحضارة والعلم، وخليق بالقضايا التي تقرر في ظلمة الجهل من وراء حجاب وبدون ان يظهر التاريخ عليها، ان تعد من الاساطير التي تنقص وتزيد وتتأثر بالزمان والاقليم لا من الحق الثابت الذي لا شك فيه. على هذه القاعدة نفهم انتساب طائفة من قبائل البربر والاكراد

---

(١) كان الرومان أشد من العرب محافظة على انسابهم وبقي ذلك الى أيام الامبراطورية ثم لم تسلم هذه الانساب من نقد المؤرخين القدماء والمحدثين

والجرا كسة الى العرب ، نعم ربما صحت بعض الانساب في الاسلام ولا سيما انساب الهاشمية ، ولكن لا ينبغي ان نغفل عن اولئك الادعياء الكثيرين الذين اندسوا في ديوان بني هاشم على اختلاف العصور ، ولو انك نظرت في حياة الرجل الفذ الذي حفظ انساب العرب ووصل أسبابها بالمحدثين أيام بنى العباس وهو ابن الكلبي صاحب الجمهرة التي اختصرها ياقوت وأخذها ابن حزم لرأيت أكثر الرواة يتهم صدقه وأمانته فيما كان يروي من الاخبار ، ولعل كثيرا من الناس قرأوا تلك المداعبة التي كانت بين أبي نواس وبينه ، وذلك حيث يقول ابو نواس

أبا منذر ما بال انساب مذحج   مغلقة دوني وأنت صديقي
فان تعزني يأتاك ثنائي ومدحتي   وان تأب لا يسدد على طريقي

والناظر في مداعبات الشعراء في أوائل القرن الثاني يرى مقدار شك المحدثين فيما انتهى اليه علم النسب ، وحسبك أن تقرأ قول بشار :

ارفق بنسبة عمرو حين تنسبه   فانه عربي من قوارير
مازال في كير حداد يردده   حتى بدا عربياً مظلم النور

وكذلك قول الآخر ،

الحمد لله هذا أعجب العجب   الهيثم بن عدي صار في العرب

والقول في أمر الحطيئة وتنقله بنسبه في القبائل ، وفي العبيديين

وانهم نسبهم الى بني هاشم شائع مشهور بين الادباء والمؤرخين

٢

من بطون قضاعة تيم الله بن أسد بن دبرة بن تغلب بن حلوان ابن عمران بن إلحاف بن قضاعة ، وتيم الله هذا مجتمع طائفة من الاحلاف القضاعيين عرفوا في الجاهلية والاسلام الى ما بعد الى العلاء باسم تنوخ ، وانما جاءهم هذا الاسم فيما زعم رواة الاساطير من انهم حين جلوا عن تهامة الى البحرين لحرب كانت بينهم وبين بني نزار سألوا كاهنتهم الزرقاء بنت زهير — وكأن لفظ الزرقاء لقب يلزم كل كاهنة فليس من الناس من يجهل زرقاء اليمامة — فقالوا ماتقولين يازرقاء؟ قالت : سف وإهان وتمر وألبان خير من الهوان ، قالوا فما ترين؟ قالت : مقام وتنوخ ماولد مولود واتفقت فروخ الى أن يجيء غراب ابقع اصمع أنزع عليه خاخالا ذهب فطار فألهب ونعق فنعب يقع على النخلة السحوق بين الدور والطريق فسيروا على وتيرة ثم الحيرة الحيرة . قال الرواة فبينا القوم فى مجلسهم ذات يوم اقبل هذا الغراب كما وصفته الزرقاء فارتحلوا الى الحيرة فبنوا بها المنازل واتخذوها داراً ، ثم عدت عليهم عواد واصابتهم صروف نسيتها الاساطير وجهلها التاريخ ، فتفرق حيهم واستقرت طائفة منهم في الشام ، وكانت لهم تلك القرية التي وصفناها فى المقالة الاولى ، وكان منهم هذا الرجل الخالد

الذي وضعنا لحياته هذا الكتاب

هذه الاساطير مصدر عناء للذين يهمهم تحقيق ماقبل التاريخ، وهى أيضاً مصدر خلاف بين اللغويين أصاب شره الجوهرى فشنع عليه صاحب القاموس من حيث لم يحتسب ولم يقدّر .قال الجوهري ان تنوخ انما اشتق من ناخ فهو اذاً مضارع بديء بالتاء ثم غلبت عليه الاسمية كما في تماضر اسم الخنساء، ولكن صاحب القاموس أبى ذلك وعده خطأ ، وقال انما هو من تنخ بالمكان أقام به ، ووافقه على ذلك صاحب اللسان

أما نحن فما نعرف وجها يرجح رأى صاحب القاموس ويبيح له ان ينص على غلط الجوهري ، انما هو لفظ جاءت به الاساطير مبهما مجهول الاشتقاق ، فذهب الجوهري فى تأويله مذهبا وذهب غيره من اللغويين مذهبا آخر ، وكلا المذهبين جائز الصحة والبطلان، وأجمل موقف يقفه الباحث بازاء مثل هـذا اللفظ انما هو موقف الشك بازاء شيء لم يوضحه التاريخ الصحيح

لاشك في أن لهـذه الاساطير ظلا من الحق ، جسمه الخيال وأحاطه قدم العهد بطائفة من الاوهام ، ولكن استخلاص هـذا الظل الصحيح من هذه الاوهام شيء لاسبيل اليه ، فلندع مواضع الشك ، ولننتقل الى موضع اليقين من البحث عن أسرة أبي العلاء

ورهطه الادنين ، ولكن لابد لنا قبل أن ندع هذه الاوهام من أن نقرر قضية ذات خطر لانها تؤثر في حياة الناس أثراً غير قليل

٣

هذه الاوهام والخيالات الكثيرة ، التى تتوارثها أسرة من الاسر أو شعب من الشعوب تترك في نفس الاجيال الناشئة شيئاً من الاثر، فاذا كانت تمثل العز والمجد ونباهة الشأن ورفعة القدر، تركت فى نفس الاجيال الناشئة ظلا من الاباء والحمية ومن الشمم والصيد، واذا كانت تمثل الذلة والمسكنة والخمول والضعف ، تركت في نفس هذه الاجيال ظلا من الخنوع والخشوع . هذا الظل الذي يتركه التراث القديم ، يعمل غير قليل في تكوين الاشخاص النابهين مشتركا مع غيره من المؤثرات التي يتكشف عنها الزمان ، فلنلاحظ هذه القضية فان أثرها سيظهر جليا في حياة أبي العلاء

اسرته

٤

الفضل كل الفضل لياقوت فيما نعرف من تاريخ الاسرة التي أنجبت هذا الحكيم ، فانه قد عدّ لنا من أفرادها النابهين طائفة غير قليلة ، في كتابه المعروف بمعجم الادباء ، وهذا البيان الواضح الذي

جاء به ياقوت لأسرة أبي العلاء يدل على انها قد كانت أسرة لها في المجد العلمي طارف وتليد ، فان جده سليمان بن داود ولي قضاء المعرّة وحمص وعرف بالفضل وكرم النفس ومات سنة تسعين ومائتين ، فولي بعده ابنه أبو بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء، وقد قصده الشعراء بالمدح ، فمدحه الصنوبري بابيات منها

بابي يا ابن سليما ن لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبا نا لعمري وشيوخا

فلما مات ولىّ القضاء بعده اخوه عبد الله بن سليمان والد ابى العلاء فمات سنة سبع وسبعين وثلثمائة وله من الولد غير ابى العلاء أبو المجد محمد بن عبدالله وأبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله وكانا شاعرين ، ثم كان من عقب عبدالله طائفة تولوا القضاء ذكرهم ياقوت ولم نشأ أن نطيل بذكرهم . واكثر أسرة أبي العلاء قد قرضوا الشعر فأجادوا قرضه ، فقد كان أبوه واخواه شعراء روى لهم ياقوت من الشعر مايدل على ان لهم من الاجادة حظاً موفوراً ، وكذلك من جاء بعدهم من أبنائهم الذين بقى لهم مجدهم المؤثل موفوراً عليهم الى أواخر القرن السادس ، ومن الواضح ان طريف مالهذه الاسرة من المجد اذا انضم الى تليدها قوى في نفس الذكى النابغة من أبنائها اخلاقاً ستظهر في أبي العلاء

اسرة لام

٥

أصهر عبد الله بن سليمان الى أسرة بحلب تعرف في رسائل أبي العلاء بآل سبيكه ، ولم يعرض لها ياقوت ولا يدلنا التاريخ من أمرها على شيء ، ولكن شعر ابي العلاء ونثره يمثلان لنا من هذه الاسرة ثلاث خصال . الاولى كثرة الرحلة وجوب الآفاق وذلك يظهر في رسائله وفي قصيدة من سقط الزند بعث بها الى أحد أخواله وقد عاد من سفره الى المغرب ومطلعها :

تفديك النفوس ولا تفادي فأدن القرب أو أطل البعادا

ومنها :

اذا سارتك شهب الليل قالت أعان الله أبعدنا مرادا

ومنها :

كأن بني سبيكة فوق طير يجوبون الغوائر والنجادا
أبالاسكندر الملك اقتديتم فما تضعون في بلد وسادا

وسنعرض لهذه القصيدة عند الكلام على شعره . الثانية كرم النفس وسخاؤها بالمال وحرصها على صلة الرحم ، ويمثل ذلك رثاء ابى العلاء لامه وشكره لخاله اكثر من مرة في الرسائل على

معونته اياه ، بل ان سفره الى بغداد ومقامه بها ورجوعه منها لم يكن الا من نوافل خاله هذا

الثالثة حب العلم والنبوغ فيه ، ويمثل ذلك تلك المكاتبة التي اتصلت بين أبي العلاء ببغداد وبين خاله بحلب في شأن كتاب السيرافي الذي شرح به كتاب سيبويه ، وكذلك لفظ الرسائل التي كتبها الى اخواله وأسلوبها يدلان على انه يرى لهم التفوق واتقان العلم . وخصلة أخرى تظهر من مجموع حال هذه الاسرة وهي الثروة واليسار . ولا بد لنا من أن نلاحظ ان رسائل ابي العلاء ولزومياته وديوانه المعروف بسقط الزند تخلو كلها من ذكر أسرته لابيه ، الا ما كان من رثاء والده ، بينما تستغرق أسرته لأمه من ديوانه ورسائله مقداراً غير يسير ، فلا شك في ان ايادي أمه واخواله كانت متظاهرة عليه وان معونة أسرته لابيه كانت منقطعة عنه لفقر او جفاء

مولده

١

في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ثلاث وستين وثلثمائة للهجرة وسنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للمسيح قبل

مغيب الشمس بقليل ولد في معرة النعمان طفل استقبل الوجود لا يحييه ولا يشعر به ولا يعرف ما أضمرت له الايام من خير أو شر ومن سعادة أو شقاء ومن رفعة قدر أو خمول ذكر

استقبل الوجود فما أحس مقدمه الى هذه الحياة الا أهله الاقربون وما نحسب أنهم احتفلوا بقدومه عليهم أكثر مما يحتفلون بقدوم طفل ولد لرجل من أوساط الناس

استقبل الوجود وهو يجهله كل الجهل وتلقته هذه الدنيا وانها لتجهل مزاجه وتركيب نفسه وما سيؤل اليه أمره من ذم لها ورغبة عنها ونعي على الكلفين بها الجشعين اليها ، ولكنها مع ذلك تعد له ألوانا من اللذات والآلام ليس له من لقائها بد ولا عن ابتلائها مندوحة . كلا الصاحبين من الحي والحياة يلقي صاحبه جاهلا له مكرها على لقائه ، ولو أن أحدهما خير في هذا اللقاء لما رضيه ولا مال اليه. لو أحس الجنين تلك الصروف والاهوال التي تتأهب للقائه لآثر أن يختنق في رحم أمه ، ولو أحست الحياة تلك الخلال التي سيلقاها بها هذا الجنين من صبر على آلامها أو تبرم بها ومن شره الى لذاتها أو زهد فيها لودت لو تنصرف عنه

كذلك كان يتحدث هذا الطفل بعد أن مر على مولده أربعون عاما لقد استقبل الحياة وما كان استقباله اياها الا نداء له بأن

يحتملها كما هي وعهداً عليه ان يتقضاها من غير أن يطلب منها مفراً ، وكذلك فعل ، فسيدلنا تاريخه على أنه احتمل آلام الحياة غير ضجر ، وبلا الحق من لذاتها غير بطر ، وأوفي بهذا العهد الذي أكره عليه فأحسن الوفاء . دخل الحياة مجبراً وخرج منها مجبراً وأقام فيها مجبراً ، ولكن هذه الحياة الجبرية كانت مصدر هذه الآثار التي نحن مبينوها منذ الآن

اسمه ولقبه وكنيته

٢

هـذا الطفل هو أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان ابن محمد بن سليمان بن احمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث ابن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي وهو المعروف بساطع الجمال ، رهن المحبسين ينتهي نسبه الاعلى الى تيم الله ثم الى قضاعة ثم الى قحطان ان صح الاعتماد على ما تحدث به النسابون

سماه ابواه بهذا الاسم ولكنه كرهه حين بلا نفسه وعرف أخلاقه ، فرأى أن من الكذب اشتقاق اسمه من الحمد وانما ينبغي أن يشتق من الذم

وكذلك كنياه بهـذه الكنية فيما نرجح ، فقد كان من عادة

الآباء في ذلك العصر أن يكنوا ابناءهم وقت تسميتهم . والاستدلال على ذلك لا يكلفنا الا الاشارة الى ما امتلأت به كتب الأدب من نوادر التسمية والتكنية. واخبار الصاحب بن عباد في ذلك شائعة متظاهرة ، ولكن أبا العلاء كره هذه الكنية أيضاً ورأى ان من الظلم أن يضاف الى التصعيد والعلو ، وانما العدل أن يضاف الى السقوط والهبوط

دعيت أبا العلاء وذاك مين ... ولكن الصحيح أبا النزول

فأما اللفظ الذي اختاره لنفسه وكان يحب أن يدعي به فهو « رهن المحبسين »

قد سمى نفسه بهذا الاسم بعد رجوعه من بغداد واعتزاله الناس وانما أراد بالمحبسين منزله الذي احتجب فيه وذهاب بصره الذي منعه من مشاهدة الاشياء المبصرة ، على انه قد ذكر لنفسه في اللزوميات سجونا ثلاثة: احدها منزله ، والآخر ذهاب بصره ، والثالث جسمه المادي الذي احتبست فيه نفسه أيام الحياة ، وذلك حيث يقول

اراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسم الخبيث

---

(١) تحقيق هذا فى المقالة الخامسة

غير انه قد أعرض عن السجن الثالث فلم يسم نفسه الا رهن المحبسين ،وعلة ذلك فيما نعتقد امران: احدهما ان هذا السجن مشترك بينه وبين عامة الناس . الثاني (١) ان مذهبه في النفس لم يكن ثابتاً ، بل كان يرى مرة رأي أفلاطون ،فيزعم ان النفس جوهر مجرد مستقل قد أهبط الى هـذا الجسم ليبتلي ويمتحن ، ويرى تارة أخرى رأي الماديين فيزعم ان ليست النفس الا حرارة منبثة في الجسم يمضي بها الموت ، فآثر ان يسمى نفسه بشيء لاشك فيه يكون مع ثبوته اشد به اختصاصاً وأكثر به اتصالاً ، وربما صح له ذلك في العزلة ،فانا لا نعرف بين المسلمين في عصره ولا قبله من سار سيرته فلزم البيت وآثر الوحدة وحرص على اعتزال الناس . فأما العمى فلم يقصر عليه ولم يختص به وانما هو آفة شائعة بين الناس في جميع الاعصار والاقطار، تصيب منهم النابه والخامل وتصيب منهم الغبي والفيلسوف، ولكن أبا العلاء كان يرى لذهاب بصره خطراً ليس له اذا عرض لرجل آخر . وليس لذلك منشأ الا رأيه في نفسه بالقياس الى غيره من الناس

ذهاب بصره

٣

في سنة سبع وستين وثلثمائة وهي السنة الرابعة من حياة أبي

العلاء رمته الايام بأول ماخبأت له من كبار المصائب وعظام الاحداث رمته بالجدرى فما زال يضنيه ويعنيه ويلح عليه حتى ذهب بيسرى عينيه جملة وغشى يمناهما بالبياض ، ثم لم يكن الا قليل حتى فقدما بقى فيها من قوة الابصار.

دهمته هذه الداهمة وهو صبى لا يعقل ولم تبلغ ذاكرته أشدها ، فلم يستطع حين شب ان يتذكر مارأى من الالوان ، ولم يبق في ذاكرته منها الا الحمرة ، لانه البس في الجدرى ثوباً معصفراً ، فكان اشتداد المرض عليه وتأثيره فيه من الاسباب التى نقشت هذه المصيبة في نفسه نقشاً لا يزول ، فأذكرته اياها وأذهلته عما سبقها. أثر هذه المصيبة من الحزن عظيم يلزم صاحبه في جميع أطوار حياته لا يفارقه ولا يعدوه ، ذلك لانه يذكر بصره كلما عرضت له حاجة وكلما ناله من الناس خير أو شر ، بل كلما لقيهم في مجمع عام أو خاص ، فما يزال هذا الحزن يؤلمه ويخزه الا ان يفقد الشعور وتصيبه البلادة المطلقة ، وكلما قوى فيه الحياء والحرص على مجاراة الناس في المحافظة على آدابهم وأوضاعهم العامة اشتد أثر هذا الحزن في نفسه ، لانه لن يوفق اذا لقى المبصرين أن يكون مثلهم مهما كان فطنا ذكيا . قد يهزأون منه ويسخرون به ان كان حظهم من الادب قليلا ، ولكنهم يتغفلونه ويقلون الاحتفال به في أنفسهم مهما عظم نصيبهم من الأدب وحسن الاخلاق

لقد كانت لبشار قينة تحسن الغناء ، فاخذت طائفة من الادباء تسمر عنده لسماع هذه القينة، وأخذوا أثناء الغناء يغمزونها ويكثرون معها المداعبة وهو لا يدري حتى قال له بعض الشعراء أبياتا أولها

اتق الله أنت شاعر قيس لاتكن وصمة على الشعراء

والمكفوف اذا جالس المبصرين أعزل وان بزهم بأدبه وعلمه فاقهم في ذكائه وفطنته ، فقد يتندرون عليه باشارات الايدي وغمز الالحاظ وهز الرؤوس وهو عن كل ذلك غافل محجوب ، فان نمت عليهم بذلك حركة ظاهرة أو صوت مسموع فجئته عليهم منقطعة وحجتهم عليه ناهضة ، وليس له من ذلك الا ألم يكتمه وحزن يخفيه ، ثم هو ان اشتد ذكاؤه وانفسح رجاؤه كثرت حاجته اليهم وكثرت نعمهم عليه ، فهو عاجز عن تحصيل قوته الا بمعونتهم، وهو عاجز عن شفاء نفسه من حب العلم والمطالعة الا بتفضلهم، وهو عاجز عن الكتابة والتحرير الا اذا أعانوه وتطولوا عليه ، وللمنن المتظاهرة والآلاء المتواترة في نفس العاجز الفطن أثر هو الشكر يشوبه الحزن ، والثناء يمازجه الاسى . والحرمان أخف عليه من منة يعقبها من، ونافلة يشوبها استطالة . ولشعور الانسان بعجزه وقع ليس احتماله ميسوراً ولا الصبر عليه الا متكلفاً ، وليس يلقي المكفوف من رأفة الناس به ورحمتهم له وعطفهم عليه الا ما يذكي الالم في صدره

ويضاعف الحزن في قلبه ، ثم هو لا يلقي من قسوتهم وشدتهم ولا استهانتهم وازدرائهم الا ما يشعره الذل والضعة وينبهه الى العجز والضعف. ومكان المكفوف في نفس زوجه وبنيه دون مكان المبصر. فاجلالهم اياه محدود وطاعتهم له مقصورة على ما يتنبه اليه ، ثم هو بعد ذلك كله قد حرم التمتع بلذة يكبرها الناس ، وجهله اياها يضاعف خطرها فى نفسه ، فان تعاطى صناعة الشعر أو الوصف فان هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والواصفين فيما يتنافسون فيه ، الا أن يكون مقلداً أو محتذياً ، ثم هو يسمع الناس يتحدثون عن بهجة الربيع وجمال الربى ، وعن اتساق الازهار والتفاف الاشجار ، وعن اكتساء الانهار الجارية والبحار الطامية ثياباً فضية أو عسجدية فى الصباح والاصيل ، وعن أولئك الحسان الفاتنات توردت خدودهن ولمعت ثغورهن اللؤلؤية بين شفاههن اللعس والتأمت من وجوههن وشعورهن نضرة النهار وفحمة الليل ، وعن السماء وأفلاكها والنجوم وحركاتها ، وعن السحاب المركوم يخفق فيه البرق ، وعن حبات البرد تتساقط وقطرات المطر تنتثر ، وعن ضوء القمر هلالاً وبدراً ، وعن الشفق أول الليل وآخره

يسمع احاديثهم عن هذا كله وما ابدعوا فيه من تشبيه لا يعقله ولا يفقه كنهه ، فضلا عن ان يجاريهم فيه او يسبقهم اليه ، ثم هو بعد

هذا كله قاعد إن نفر الناس لقتال او حرب قد يئس وطنه من نصره وقنط من حفاظه فلم ينط به أملا ولم يعقد به رجاء ، كل على الناس في كل شيء ، تكلة في حياته المادية والمعنوية ، فاليأس اخلق به من الرجاء ، والموت خير له من الحياة الا ان تكون له نافلة من فضيلة الصبر وشدة الايد .

فاذا (١) أضيف الى هذه الآلام فساد الاخلاق وانحطاط النفوس وازدراء المنكوبين واصحاب الآفات حتى من الخاصة وأهل العلم ، ثم اشتداد الفقر ونضوب موارد العيش ، انتجت هذه المصيبة من الاثار ما ستراه فى حياة أبي العلاء

تربيته وتعليمه

٤

لو كنا نؤرخ مبصراً لاضطررنا الى أن نصف ما كان يقع عليه بصره في أيام الصبا فان لذلك من الاثر في تكوين الناشيء وترتيب حياته العقلية والخلقية ما فرغ من اثباته علماء التربية والباحثون عن علم النفس ، ولكنا نؤرخ مكفوفاً لم تبل عيناه في تربيته وتأديبه

---

(١) يلاحظ ان هذا الاذى قد أصاب أبا العلاء في بغداد من احد المعلمين كما بينا في هذه المقالة

شيئاً من البلاء ، وانما الفضل كل الفضل في ذلك لسمعه الذي كان ينقل الى نفسه الاصوات المختلفة وما تدل عليه

نعم ان اللمس والشم والذوق تنقل الي النفس من صور المادة شيئاً غير قليل ، ولكن من الغلو ان نعني بالبحث عما كان يلمس ابو العلاء او يشم او يذوق من الاجسام ، فليس الى ذلك من سبيل لان التاريخ لم يوكل به من الرقباء من يستقصون حركاته فينقلونها الينا ، على ان ذهاب بصر ابي العلاء قد قوى في نفسه خلق الحياء فما نظن انه كان يحرص على ان يتقرى الاشياء المبصرة باللمس ، فان ذلك يعرضه لالوان من ازدراء اترابه

مازلنا نرى ان ذهاب بصر الطفل في الشرق يحدد حياته في اكثر الاحيان ، فيرسم له طريقا لا يعدوها وهى طريق الدرس وتحصيل العلم ، ومن آثار ذلك انك لا تكاد ترى الان رجلا فقد بصره طفلا الا وهو دارس للعلم او متكسب بتلاوة القرآن ، ذلك لان ذهاب بصره قد حال بينه وبين التماس العيش من طريق التجارة او الصناعة أو غيرهما من مذاهب الحياة التى تحتاج الى الابصار . على ان نصيبه من العلم محدود ايضاً فهو لا يستطيع أن يجتهد في تحصيل العلوم التجريبية التي تحتاج الى البصر كالطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية ، فان حصل على شيء من ذلك

فانما هو عرض قد ألم به من غير أن يتقنه او ينبغ فيه . انما يستطيع ان يدرس العلوم العقلية واللسانية والدينية وأن يكون راويا للادب أو للتاريخ أو نحوهما من هذه الفنون

وقد كانت عادة أهل الشام والعراق والبلاد التى غلبت فيها اللغة العربية لعهد ابي العلاء أن يبدأ الناشئون فيها بدرس علوم اللسان والدين،حتى اذا بلغوا من ذلك ماأرادوا سما من شاء منهم الى درس مااحب من العلوم العقلية والفلسفية ، وقد قدمنا ان اسرة ابي العلاء قد كانت اسرة علم وشعر وقضاء ، لذلك بدأ ابو العلاء درسه اللغوي في سن لم يعينها التاريخ على أبيه ، ونأسف أشد الاسف لان مؤرخي أبي العلاء لم يعينوا لنا الكتب التي بدأ بدرسها في النحو واللغة والآداب . فلو انهم فعلوا ذلك لكان من اليسير علينا ومن النافع لنا ان نلتمس هذه الكتب فنصفها وندرس ماعسي أن تحدث في ملكاته من التأثير،ومهما يكن من غموض الدراسة الاولى لابى العلاء فلا شك في انها قد كانت صالحة نافعة يمدها طبع جيد وقلب زكى واستعداد للعلم موروث ويزيد نفعها ان استاذه هو ابوه المحب له الحدب عليه،لذلك اتفق مؤرخوه على انه قد بدأ يقرض الشعر ولما يعد احدى عشرة سنة . وكذلك ارتحل الى حلب ليسمع اللغة والآداب من علمائها الذين شهدوا ابن خالويه وأخذوا عنه، وفيهم

محمد بن عبد الله بن سعد . وليس من المعقول ان يترك الدرس على ابيه الا اذا استنفذ ماعنده وطلب المزيد عليه .

ولقد كانت حلب في ذلك العصر احدى الحواضر الكبرى للمسلمين تزدهي بمن فيها من كبار العلماء والادباء وفحول النظم والنثر الذين دعاهم اليها سيف الدولة في ايامه الغر ، فقد تحدث الرواة انه لم يجتمع بباب أحد من الملوك والخلفاء بعد الرشيد مثل من اجتمع بباب سيف الدولة من العلماء والادباء

ليست تبرأ هذه الرواية من الاسراف ، ولكنها تدل على ان حلب قد كان لها في عصر ذلك الملك منزلة أدبية سامية ، وليس ينبغي أن يعترض على ذلك بأن سيف الدولة قدمات وانقضي عصره قبل أبي العلاء ، فان الحياة الادبية في بلد من البلاد لا تقدر بآجال الرجال الذين أذكوا نارها بحيث تذهب بذهابهم . وإنما للحياة الادبية أنظمة وقوانين عليها تقوم . فسيف الدولة قد بدأ النهضة الأدبية بحلب وقواها ، ولكنها لم تذهب بموته ، بل بقيت بعده تختلف عليها أطوار الضعف والقوة الى أواخر القرن الخامس في أيام نصر بن محمود شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

فهذه الحياة الادبية في حلب اذا صادفت ناشئا ذكي القلب صادق الفطنة جيد الحفظ أثمرت في نفسه ثمرا ناضجاً لذيذ الجني كالذي أثمرته في نفس أبي العلاء

قال المؤرخون: وقد أخذ أبو العلاء شيئاً من السنة عن يحيى بن مصير، ولا شك في ان درس أبي العلاء للسنة لم يكن جيداً ولا متقنا اذ لم يخرج منه محدثاً كما أخرج درس اللغة والادب منه لغويا أديبا وشاعراً كاتباً

لا يعرف التاريخ أساتذة لابى العلاء في فن من فنون العلم غير أبيه وهذين الرجلين، ولكنه يعرف انه سافر الى انطاكية وكانت حاضرة من حواضر المسلمين الى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة، ثم ملكها الروم الى سنة سبع وسبعين وأربعمائة حين استردها السلجوقيون. قالوا وكانت بها مكتبة عربية تشتمل من نفائس الكتب على عدد غير قليل، فحفظ منها أبو العلاء ماشاء الله أن يحفظ

نعم ان التاريخ لا يوقت لنا هذه الرحلة، ولكن رواية تؤثر عن أسامة بن منقذ خبرتنا أنه لقى بانطاكية صبيا مجدوراً ذاهب البصر يتردد على مكتبتها فامتحنه فبهره حفظه واستظهاره، ثم سأل عنه فقيل هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري

لم ير أبو العلاء بانطاكية تلك الحضارة الراقية النضرة التي وصفها ياقوت، ولكنها وصفت له من غير شك وعرف آثارها بلا ريب، ولعل تلك البنايات الضخمة والبيع الفخمة التي وصفها ياقوت أيضاً قد أظلت أبا العلاء حينا، ولعل قائده قد ذكر له محاسنها وما

فيها من صنع بديع

ولقد كان جمهور أهل انطاكية حينئذ من الروم تمثلهم لابى العلاء طمطمتهم الاغريقية وعاداتهم الخاصة ، وكانوا فى تلك الايام ظاهرين على أهل العواصم من المسلمين . فمن الواضح ان بؤس المسلمين بانطاكية قد كان ظاهراً يستطيع هذا الصبي الذي بلغ من الرشد أن يتردد الى المكاتب و يدرس فيها العلم ملاحظته والتفكير فيه

فكل هذه المؤثرات قد عملت من غير شك في تكوين المزاج الخلقي والعقلى لابي العلاء قليلا أو كثيراً

٦

سافر أبو العلاء بعد ذلك الى طرابلس الشام . قال القفطي والذهبي فمر في طريقه باللاذقية فنزل بدير فيها والتقى بهذا الدير راهباً قد درس الفلسفة وعلوم الاوائل فاخذ عنه منها ماشككه في دينه وغيره من الديانات. قال ونم عليه بذلك شعر الصبا . ثم استغفر وتاب والتمس لكلامه وجوها من التأويل قبلت منه ، ولكنهما لم يرويا شيئا من هذا الشعر . أما مرجليوث فقد شك في هذا الخبر ، وظن ان العرب يضيفون الى الرهبان والنصارى عامة كثيراً من الآراء التى يبعد ما بينها و بين الاسلام . ونحن لانشك في أن الصلة قد اشتدت بين أبي العلاء و بين النصارى قبل رحلته الى بغداد، بحيث

استطاع أن يدرس دينهم ودين اليهود ويناقشهم فيهما، فان حياته بعد رجوعه من بغداد لم تكن حياة طالب وتعلم، وانما كانت حياة درس وتعليم. ثم هو لم يدرس مع المسلمين كتب النصارى واليهود. وانما هو درس اللغة وآدابها ولو انه درس معهم شيئاً من الدين لحدثنا به التاريخ. واذا لم يكن بد من ذلك فابو العلاء لم يدرس النصرانية واليهودية في المعرة، لان حياتها العلمية لم تكن تسمح بذلك. فلا شك في أنه قد درس هاتين الديانتين في أسفاره الاولى، فاما أن يكون ذلك في انطاكية واما أن يكون في اللاذقية

أما نحن فنرجح انه درسهما فى اللاذقية لامرين: أحدهما رواية المؤرخين اللذين أشرنا اليهما آنفا، والآخر بيتان رواهما ياقوت في معجم البلدان عند كلامه عن اللاذقية، قال: وقال المعري (الملحد) :

في اللاذقيــة فتنــة   مابين أحمد والمسيح
قس يعــالج دلبــة   والشيخ من حنق يصيح

وتكملة هذين فيما يرويه غير ياقوت قوله :

كل يعــزز دينــه   ياليت شعري ماالصحيح

فان صح ماروى ياقوت فقد أصاب الشك الذي ذكره القفطى والذهبي أبا العلاء باللاذقية حين نزل الدير وسمع من أهله التوراة والانجيل ومن رهبانه آراء الفلاسفة

وكانت اللاذقية حين زارها أبو العلاء في أيدى الروم، قال ياقوت: وكان للمسلمين بها مسجد ومؤذن وقاض، فاذا أذن مؤذنهم دق الروم نواقيسهم كيادا لهم

فهذه الحال التي أنطقت أبا العلاء بهذه الابيات وهى لاتنطقه بها حتى تحمله على تفكير ينتهى به الى الشك والارتياب، وهذا التفكير يقتضي من قبل أبي العلاء درسا وعناية، فلا شك في أن مرجليوث لم يوفق فيما ظن الى الصواب

وصل أبو العلاء الى طرابلس. قال المؤرخون: وكانت بها مكتبة كبيرة وقفها اهل اليسار، فدرس منها أبو العلاء ماشاء، ثم عاد الى معرة النعمان

هذه هى جملة ما حفظ التاريخ من سيرة أبي العلاء في الدرس درس على ابيه، ثم انتقل الى حاضرة اقليمه فدرس على علمائها، ثم رحل الى مدينتين من مدن الروم فدرس فيهما، ثم الى طرابلس، ثم عاد الى بلده. وقد قال أبو العلاء في بعض رسائله : انه لم يحتج بعد العشرين الى أن يأخذ العلم عن أحد في الشام ولا في العراق . وأبو العلاء عندنا صادق اذا حدث عن نفسه وليس في هذا الحديث من العجب مايدعو الى الشك فيه ، فان عشرين سنة يقضيها الفتى الذكي القطن منقطعاً للعلم والتحصيل في بلده وفي غيره من حواضر المسلمين والروم تكفي

لان تكوّن منه رجلاً قد أتم الدرس وفرغ من الطلب فلم يبق له الا أن يحيا حياة علمية مستقلة لا يحتاج الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام ودرسه الخاص. نعم ان ابا العلاء لم يبدأ في الدرس يوم ولد ولكن عصر الطفولة ربما كان أحسن عصور التعلم (١) لأن الطفل يتلقى فيه دروسه المكوّنة لنفسه عن الطبيعة الساذجة من غير ما تكلف ولا تعمق، واذا كان أبو العلاء قد اتم الدرس والتحصيل في سن العشرين فلا شك في ان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة لم تظله حتى كان وادعاً في المعرة يعيش عيشة غير عيشة التلميذ

موت ابيه

٧

لقد مضينا في تفصيل الدرس الذي درسه أبو العلاء حتى بلغنا به سن العشرين وكان من الحق ان نقف به عند الرابعة عشرة من عمره على قبر ابيه الذي مات سنة سبع وسبعين وثلثمائة. ولكنا احببنا ان يطرّد القول في درسه على نسق واحد حتى اذا فرغنا منه عدنا الى

---

(١) يلاحظ ان ما يروى من نبوغ ابي العلاء في هذه السن ليس بدعا من حال النابغين ومن قرأ حياة بسكال الفرنسي عرف ان ابا العلاء لم يجاوز العادة ولم يعد الطور المألوف

هـذه الفاجعة التي فجعته ناشئاً ودهمته أحوج ما يكون الى المعين لقد فقد أبو العلاء بصره فكان أحوج الى أبيه من غيره ليغذوه ويقضي حاجه وليسد خلته ويذود الطارقات عنه ، ولـكن الدهر أبى الا ان يسلبه هذا الوزر الذي كان يلجأ اليه والمعقل الذي كان يعتصم به ، ويتركه نهب الحوادث تدهمه وتغير عليه من غير ان يجد له عليها عوناً ولا نصيراً

على أن فقد ابي العلاء والده في هذه السن لم يكن ليؤذيه من هذا الوجه وحده فربما استطاع ان يتعزى عن أبيه باخواله الذين احسنوا الرعاية لحقه ، ولـكنه يحفظ في قلبه تذكار ما عهد من برأبيه به وحنوه عليه وهو الذي كان منه في صباه مكان الاب والاستاذ معاً ، فقد تعهد جسمه وعقله وخلقه بالتربية والتنشيء فصاغه على مثاله ما استطاع وأشربه أخلاقه وخلاله ، وكل ذلك يترك في النفس ذات الحس القوي والشعور الصادق أثراً غير قليل

٨

رثى أبو العلاء والده لما مات بقصيدة أثبتهـا في سقط الزند تمثل ماقرض من شعر الصبا وتحدث بما آل اليه أمره من شـك واضطراب ومن بغض للدنيا وافتنان فى ذمها ، ولـكنها مع ذلك في حاجة الى كثير من شدة الاسر واحكام التركيب ، ومن صفاء الرونق

وجمال الاساوب ، ومن صدق التعبير عما في قلبه من الحزن على أبيه والاسى لفقده

فان تكلف الغريب والرغبة في البديع والحرص على محاكاة الفحول والاجتهاد في اظهار علمه ومقدرته ، كل ذلك قد جعل شعره في هذه القصيدة لايكاد يعبر الا عن فصاحة لسانه وقوة حافظته وقدرته على النظم دون ما في قلبه من تأثر أووجد

مطلع هذه القصيدة قوله:

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني الا عبوس من الدجن

فليت فمي ان شام سني تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمي بلا سن

كأن ثناياه أوانس يبتغى لها حسن ذكر بالصيانة والسجن

فانظر كيف اتخذ للتعبير عن سخطه صوراً ثلاثاً ليس فيهن صورة تصلح أن تكون شعراً ، فانه اثبت في البيت الاول انه لايرضى عن شيء حتى السحاب الضاحك المبتسم، وتمنى الا يجوده من الدجن الا العبوس المظلم، وليس في هذا كبير غناء فما كان السحاب الضاحك أحق الاشياء بالرضى حتى يكون انصرافه عنه دليلا على بلوغه أقصى منازل السخط والاشمئزاز ،ولا سيما وهو مكفوف لايعرف جمال هذا السحاب ولايقدر الابتهاج بمنظره ، وليس السحاب العابس المظلم بأشد مايصيب الناس من الشر حتى يكون تمنيه اياه دليلا على بغضه

لصفو الحياة ، بل قد يكون هذا السحاب خيراً حين يجود الارض بما يكسوها من الزهر ألوانا ويخرج منها من النبت فنوناً . والجدب المطلق شر منه فى كل حال . ثم انظر الى الصورة التي مثلها في البيت الثانى حين تمنى ان ابتسم أن يكون فمه كفم الطعنة النجلاء تفيض بالدم وليس لها سن ، فانها صورة متكلفة متعملة ، لا تطمئن النفس الى موضعها من الدلالة على شدة الحزن . وكذلك الصورة الثالثة ليست أدل على ماأراد من صاحبه . انما هى تشبه لم ينبعث عن قلب أسف ولا نفس حزينة ولا خيال محسن للتأليف ، شبه ثناياه بالحسان حرصن على الاحتجاب ايثارا لحسن الذكر وطيب الاحدوثة : يريدانهن لا يبدون عن ابتسام . ومن الواضح ان ليس لهذا التشبيه من الجودة حظ . وانظر الى لفظ السجن كيف وضعه الى الصيانة فأبى الاستقرار لانه يشعر بالمهانة والذل ، وتلك تشعر بالكرامة والعزة ، ولكن هذا الصبي الناشيء لم يرد الا أن يقرض شعرا في رثاء أبيه وأن يملأه بفنون البديع وألوان التشبيه ، سواء وصف الشعر حزنه حقاً أو كان بينه وبين صدق الدلالة عليه أمد بعيد . انتقل أبو العلاء من هذه الصور التي أراد أن يمثل بها حزنه الى موضوع القصيدة وهو موت أبيه فقال :

أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل ... رماح المنايا قادرات على الطعن

فانظر الى الشطر الاول كيف قصر عن الدلالة على مايريد من

موت أبيه لولا هذه الزيادة التي أوردها مورد المثل . فقد تحكم الليالي في المرء بالخير والشر كما تحكم فيه بالموت . فلولا قوله (لم تزل رماح المنايا قادرات على الطعن » لما فهمنا نوع الحكم الذي أمضته الليالي في أبيه ، وقد كان له عن ذلك منصرف لولا انه لما يبل فنون الشعر ولما يتعود الخروج من مضايقها . على ان الصورة التي أورد بها موت أبيه اشد ما تكون حاجة الى الروعة ، فانها كما ترى مألوفة قد جرى لفظها على الألسنة وكثر حضورها في الاذهان . ثم أخذ يصف أباه ويذكر من خلاله ما يحمل على الاسف عليه فقال :

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى

وسهد المني والجيب والذيل والردن

فليت شعري اذا طهر جسمه ونفسه وعف نومه وسهده فأي حاجة له الى أن يوصف بطهارة الجيب وطهارة الذيل وطهارة الردن ، أليس هذا نوعاً من الاسهاب الذي لا خير فيه ولا حاجة اليه لو لم تستتبعه استقامة الوزن والقافية . على ان ابا العلاء ان فاته الاجادة في هذه الابيات فقد أحسن احساناً لا بأس به في قوله يصف وقار أبيه

فياليت شعري هل يخف وقاره اذا صار أحد في القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الروى مبادرا مع الناس أم يخشى الزحام فيستأني

حجاً زاده من حرأة وسماحة وبعض الحجايدعو الى البخل والجبن

لا بأس بهذه الصورة التي مثل بها وقار الشيخ يوم القيامة وقد اضطرب كل شيء فلم يستقر له قرار ، لولا ان تكلف النظم ظاهر فان تسكين الحاء من أحد امر لاحاجة اليه مع كثرة أسماء الجبال في اللغة العربية ، وكذلك لفظ القيامة قلق غير مطمئن . ولم يكد أبو العلاء يصل الي هذا الموضع من قصيدته حتى أخذ شعره ينم عليه بسوء رأيه في الدنيا ، فافتن في ذمها والنعي عليها، وكانت هذه القصيدة بادرة تنبيء بما سيؤول اليه أمره ومقدمة تدل على ماسينتهي اليه في نظم اللزوميات

استنزل علي الدنيا غضبة الله وكناها بأم دفر ، وبهذه الكنية دعاها في شعره ونثره الى ان مات ، ثم تكلف فى وصفها وتشبيهها بالمرأة فجعل النهار محياها والشمس جمالها والليل شعرها الفاحم والثريا والسماكين شيبها الناجم فيه ، ثم عرض بأن الدنيا زانية تئد أولادها خشية ان تفتضح بهم ، وذلك رأي فصله أكثر من مرة في اللزوميات ، ثم بين حرص الكائنات الحية على النفس فلم يفرق في ذلك بين الانسان والحيوان والطير ، ولا بين العامة والخاصة والانبياء . وذلك أيضاً رأي له فى اللزوميات . ثم عاد الى أبيه فهناه بمنزله الجديد وأظهر الشك الشديد فى مصير الناس بعد الموت فقال

طابت يقيناً من جهينة عنهم ولن تخبريني ياجهين سوى الظن
فان تعهديني ياجهين مسائلا فاني لم أعط الصحيح فأستغني

وهذا الشك أظهر أوصاف أبي العلاء فى شعره الفنى والفلسفي كما سترى في المقالة الثالثة . ثم لم يزل يذكر أباه بالخير يسهل مرة ويحزن أخرى حتى قال

ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد باللحن البريء عن اللحن

فذكر بهذا البيت معنى له رددده اكثر من مرة ، ولكنه تكلف فيه هنا هذا الجناس الثقيل . فأنت ترى ان هذه القصيدة تخلو خلواً تاماً من الدلالة على حزن قد ملك قلب الشاعر ولسانه واستأثر بنفسه ووجدانه ، ولسنا ننكر على أبي العلاء هذا الحزن ولكن ننكر دلالة هذه القصيدة عليه . ثم ان لك من هذه القصيدة ما ينبئك بمستقبل هذا الصبي وما سيأخذ نفسه به من الشدة والعنف فى كل شيء . فهو شديد فى لفظه ، شديد في معناه ، شديد في سيرته ، وعلى الجملة تمثل لنا هذه القصيدة حياة أبي العلاء العقلية فى سن الرابعة عشرة ، وتدلنا على انه سيكون على حظ موفور من اتقان النظم التكلف واجادة الصناعة المتعملة ورواية الشيء الكثير من اللغة والاحاطة بالشيء الموفور من أساليبها . ثم هى بعد ذلك كله تدل علي ان دراسته اللغوية قد كانت مثقفة محكمة ، فانا لا نعرف ان تكلفه

قد اضطره الى لحنة منكرة أو غلطة شنيعة وإن كان قدوضع أم بأزاء هل وللناس فيها قول كثير

الآن وقد مثلنا حياة الشاعر في طوره الاول الى أن يبلغ عشرين سنة ننتقل الى بقية أيامه بعد أن نلاحظ طائفة المؤثرات التي كونت نفسه واعدتها لاستقبال ما سيلقاه من حوادث الدهر . فهو لم يبلغ الرابعة حتى ذهب بصره، ولم يبلغ الرابعة عشرة حتى فقد أباه. وذلك كل ما يحفظه التاريخ من مصائبه الكبرى في هذا الطور . ثم هو بعد ذلك قد أتقن الدرس اللغوي على أبيه فتأثر بعلمه وأخلاقه معاً . ثم رحل الى حلب فأخذ عن شيوخها وتأثر بعالمها من علم وادب وبما في المدينة من حضارة ومدنية . وكان مقيما فيها عند أخواله فلقي من حنانهم عليه وبرهم به ماترك في نفسه أثراً صالحاً . واستأنف الرحلة بعد ذلك الى مدينتين روميتين : هما انطاكية واللاذقية، فدرس فيهما الكتب ،ولقي فيهما النصاري، وسمع مقالات الفلاسفة، وشهد آثار الحضارة الاغريقية . ثم انتقل الى طرابلس، فوعى ماشاء الله أن يعي: مما اشتملت عليه مكتبتها الكبرى من العلم على اختلاف فنونه . وعاد بعد ذلك الي المعرة وقد فقد أباه، وليس له من يقوم بأمره

الطور الثاني من حياته

١

بقي أبو العلاء في المعرة من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة الى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة أي خمس عشرة سنة، لا يحدثنا عنه التاريخ فيها بشيء، ولا يبين لنا كيف كان يقضي يومه وليله. ولا شك أنه قد عاش في هذه الايام عيشة الشعراء، يقرض الشعر، ويجالس من حضره من ظرفاء قومه. وهو في كل ذلك لا يسعى الى التماس عيش ولا الى اكتساب قوت. فقد كانت له ثروة ضئيلة تقوم بحاجاته وهي ثلاثون ديناراً في السنة، يغلها عليه وقف لقومه، وقد خصص نصفها لخادمه. فهو يعيش بخمسة عشر ديناراً أي سبعة جنيهات ونصف يقضي منها حاجاته طول العام. لا يشك التاريخ في ذلك، ومن الواضح أن هذا المقدار لا يكاد يسد حاجة أشد الناس بؤساً واكثرهم فقراً. ولقد كان من اليسير على أبي العلاء أن يرتزق بشعره ولكنه لم يفعل، وآثر الفقر وضيق ذات اليد على الثروة يراق في سبيلها ماء الوجه. ويحتمل في تحصيلها ذل السؤال. وهنا تظهر آثار ما ورث عن أسرته وقبيلته من خلق العزة، فأن هذه الآثار حين انضمت اليها فطرته السليمة ودراسته الفلسفية الصحيحة أغلت عليه قيمته ومنعته

من ابتذالها، فكره أن يكون كغيره من الشعراء يصوغ الاكاذيب ليتوج بها طائفة من المثقلين الذين يظلمون الناس ويسلبون أموالهم لينفقوها في أهوائهم وملذاتهم. كره أبو العلاء ذلك ولا شك في أنه تصور شيئين عند ما خطر له خاطر التكسب بالشعر أحدهما: بشاعة الكذب وقبح أثره في نفس الكاذب ونفس المكذوب عليه. فان الكاذب إذا اطمأن الى هذا الخلق اعتاد الجراءة الخطرة ولم تكن للحياء في نفسه قيمة، فهو يستحل كل شيء للحصول على مايريد. وكذلك المكذوب عليه إذا سمع مايصاغ في مدحه من طوال القصائد غره ذلك وأغراه بما هو فيه من ظلم وجور، وقتل في نفسه ماعسى أن يكون لها من حس أو شعور، وخيل اليه نقيصته فضيلة، ومذمته محمدة ونكره عرفاً، فكانت حياته شراً على نفسه وعلى الناس.

وكذلك الذين يسمعون مدح الظلمة والثناء على المفسدين يخدعهم ما يسمعون فيكذبون أنفسهم ويصدقون الشعراء. فان كان لهم من الفطنة والذكاء ما يمنعهم من ذلك فان اليأس يدركهم لا محالة. إذ يرون ظلماً يمدح، وجوراً يعظم، وفساداً يثني عليه. الثاني: أن ما يفيده من التكسب في الشعر إنما هو مال حرام قد استحل ظلماً، وربما كان صاحبه مضطراً اليه، وربما كان رزق صغار ضعفاء أو امرأة عاجزة، ولا شك في أن أصحابه لم يسلموه الا كارهين لم تطب عنه نفوسهم

ولم تسمح به قلوبهم ، ولعل مغتصبه يلتذ به وصاحبه ينفق الليل في لعنه واستعداء القضاء عليه . ولن ترى أقسى قلباً ولا أغلظ كبداً ولا أكدر طبعاً ولا أفسد مزاجاً من رجل يستمد لذته من ألم الناس ، وراحته من كيدهم ، وسعادته مما يحيط بهم من ألوان الشقاء . كل هذه الخواطر خطرت لابي العلاء حين عرض له التكسب بالشعر فصادفت منه نفساً أبية وقلباً رحيماً ومزاجاً معتدلاً ورجلا مستعداً للزهد ، فصرفته عما تهالك الناس عليه وجعلته أعجوبة أيامه . فانا لا نعرف شاعراً في تلك الايام استكبر على التكسب بالشعر . بل نكاد لا نعرف للشعراء غرضاً واضحاً من شعرهم أكثر من التماس العيش به . نعم ان أبا العلاء حين امتنع عن التكسب بالشعر لم يكن للناس قدوة ، ولم يستطع أن يمحو هذه الرذيلة . ولكن الرجل لا يؤخذ الا بفعله وليس عليه اذا صلحت سيرته ذنب المفسدين من الناس

ولقد ظن مرجليوث أن أبا العلاء تكسب بشعره في طوره الاول ، وخيل اليه انه مدح سعد الدولة ومدح خصومه من قواد الفاطميين ، ولكنه لم يستطع أن يقيم على ذلك برهاناً ولا ان يثبته بدليل . أما نحن فأبو العلاء عندنا أصدق من مرجليوث . وهو قد حدثنا في مقدمة سقط الزند أنه لم يمدح أحداً ولم يستفد بشعره مالا . فان كان قد ورد في ديوانه شيء من المدح وكذبه فانما ذهب اليه مذهب

الرياضة وتمرين القوة الشعرية . ولذلك لاتجد فى مدائحه أسماء معروفة للامراء الحمدانيين والعبيديين فى عصره . على انه قد وهب مدائحه هبة عادلة فجعل ما يصلح منها لله وقفاً على تمجيده وتعظيمه، وما يصلح للناس وقفاً على أشد الاخيار استحقاقاً له،واستقال الله مما لا يصلح لشيء . على أن لأبي العلاء مدائح هى مستثناة من هذا كله وهى التي بعث بها الى اصدقائه جواباً عما بعثوا اليه من قصائدهم أو نحو ذلك . فهذه القصائد لم يعتذر منها أبو العلاء .بل ذكرها في ديوانه وبين اسبابها والاشخاص الذين ارسلت اليهم وان كان قدمنعه الحياء من ان يذكر مدائحهم له وقصائدهم فيه. وجملة القول ان الوراثة وخلق الحياء وكبر النفس والانفة من الكذب والرحمة بالضعفاء قد اشتركت في حرمان أبى العلاء لذة التكسب بالشعر في طور شبيبته

٢

شهد أبو العلاء أثناء اقامته بالمعرة مافصلناه في المقالة الاولى من الفتن العظيمة والحروب الهائلة بين الحمدانية والفاطمية والروم . وقد كانت هذه الفتن بين سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة الى سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وهى السنة التى مات فيها العزيز صاحب مصر . وقد قدمنا أن أبا الحسن الحسين بن علي المغربي كاتب بكجور رحل الى العزيز بعد أن قتل أبو الفضائل صاحبه ، فأغراه بأخذ حلب

ودبر له تلك الحروب التي كانت شراً على حلب ومصر معاً. وستعرف عند الكلام على رسائل أبي العلاء أنه كتب رسالتين الى أبي القاسم المعروف بالوزير المغربي ، وهو ابن ابي الحسن هذا: احداهما رسالة المنيح، والاخرى رسالة الاغريض . فلم كتب اليه هاتين الرسالتين؟ أما رسالة الاغريض فقد كتبها اليه تقريظاً لكتاب اختصر به اصلاح المنطق لابن السكيت . وأما الاولى فهي التي نجهل موضوعها ، وقد عنى مرجليوث نفسه بالبحث عن الغرض الذى كتبت فيه فلم يظفر بطائل . ذلك ان مرجليوث يجهل الوزير المغربي فلا يعرف أكتب أبو العلاء الى أبي القاسم أم الى أبيه ، وهل كلا الرجلين يلقب بالوزير المغربي ، بل هل هما شخص واحد أم هل هما شخصان . . كل هذه مسائل لم يستطع مرجليوث أن يجزم فيها بشيء ، ولما كان لا يرتاب في أن المغربي الذي يجهل حقيقة اسمه وشخصه قد أغري العزيز بأخذ حلب فقد ظن ان رسالة المنيح التي كتبها أبو العلاء الى الوزير المغربي انما هي رسالة سياسية تتصل بما بين حلب ومصر، من الفتنة. وانتقل من ذلك الى ترجيح ان المعرة قد كانت تميل الى مصر، وان أهلها قد ندبوا أبا العلاء الاجابة عن رسالة سياسية كتبها اليهم هذا الوزير

والحقيقة ان المسألة تحتاج الى عناء كثير لغموض الرسالة التي

كتبها أبو العلاء وضياع الرسالة التى كتبها المغربي ، فانا لانعرف في رسالة ابى العلاء الا مدح الوزير والافتتان به فى الثنـاء على ادبه ، وان اهل المعرة فرحوا برسالته ، وانه عاجزعن توفية حقهامن الثناء وعن ان يجيب عليها بما هى اهل له . ولا شيء اكثر من ذلك . لكنا لانشك في ان الوزير المغربي انما يطلق على أبي القاسم وحده لا على أبيه ، وفي أن أبا القاسم هـذا قد كان طريد المصريين قتلوا أباه ونكبوا أسرته فخرج يؤلب عليهم عرب الشام، وظفر من ذلك بالشيء الكثير ، ثم زار بغداد والمؤصل فى خطوب لاحاجة لنا الي شرحها الآن . ومات سنة سبع عشرة واربعمائة وهو مغضوب عليه من خلفاء مصر وبغداد جميعاً . وقد ولد ابو القاسم هذا سنة سبعين وثلثمائة. فكان في ايام الحروب التي دبرها ابوه اصغر من ان يتناول المسائل السياسية. والف كتابه الذي قرظه ابو العلاء سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، اي في ولاية الحاكم . فلا شك فى انه لم يكتب الي ابي العلاء وقومه ايام العزيز ، اي لم يكتب اليهم ليستخفهم الي نصر المصريين . فان كان قد كتب اليهم أيام الحاكم فقد عرفنا انه كان مغاضبا لهذا الخليفة . فلا شك اذن فى انه كتب اليهم يؤلبهم عليه

اذا كانت رسالته سياسية

على أن هناك مايمنع هذا ، فانا نجده يلقب في رسـالة أبى

العلاء بالوزير . وهو لم ينل هذا اللقب الا بعد ان يئس من فشله في تأليب الناس على الحاكم ورحل الى الجزيرة والعراق . ونحن نرجح أن هذه الرسالة لم تتناول السياسة أو على اقل تقدير لم تتناول السياسة المصرية . وأكثر ظننا ان رسالة أدبية كتبت الى ابى العلاء فأجاب عنها . فان كان قد ذكر أهل المعرة فتلك عادة له في كثير من رسائله . لذلك نميل الى أن أبا العلاء لم يتناول سياسة مصر وحلب في طوره الاول والثانى الى ان ارتحل الى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلثمائة كما سترى بعد قليل

٣

وقد اتفق اكثر المؤرخين الذين كتبوا عن أبى العلاء على انه كان أثناء شبيبته في المعرة يجالس الظرفاء، ويتصرف في فنون الهزل والجد، ويلعب النرد والشطرنج ، ويقول انه يحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر

فأما مجالسته للظرفاء وتصرفه في الهزل والجد فأمر ليس فيه نكير عليه بعد ان عرفنا ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغه فى فن الشعر، وأما لعبه النرد والشطرنج فيحتاج الى شيء من التحقيق. ومانشك في احدى اثنتين : اما أن تكون الرواية مكذوبة مصدرها المبالغة

والاغراق فيما شاع من ذكاء الرجل وقوة حسه وصدق فطنته واما أن يكون لعبه للشطرنج قد كان باحجار معلمة تميزها الايدي وذلك شيء لم نصل الى معرفته الآن . وربما كان يلعب الشطرنج بلسانه كما يلعبه أهل الغرب الآن برسائل البرق والبريد . فأما حمده الله على العمى كما يحمده غيره على البصر فلا يدل الا على ثقة عقله واطمئنان نفسه الى هذه الحياة واحتماله مافيها من خير وشر حين عرف ان الحزن والتفجع لا يغنيان عن المرء شيأ ، وأن الاسف لا يرد فائتاً ، ولا يستدرك فارطاً . فهي كلمة تسلية وعزاء اكثر من أن تكون اخباراً صادقاً . فان ذهاب بصره لم يزل يثير في نفسه شيئاً من الحزن ، ويكلفه ألواناً خاصة من الشدة حتي في أيام حكمته وفلسفته .روي القفطي : أنه كان يحب الاستتار في كل شيء ويقول ان العمى عورة ، فيجب ألا يظهر الناس عليه . لذلك اتخذ له نفقاً يأكل فيه على غير مرأى ، حتى من خادمه الذى ارتفعت بينه وبينه الكلفة وزال الحجاب . قال القفطي : وقد أكل ذات يوم دبساً فسقطت قطرة منه على صدره وهو لا يدري . فلما خرج للدرس رأى الطلاب ذلك . فقال له بعضهم: ياسيدى أكلت دبساً . فأسرع بيده الى صدره ، وقال : نعم ، لعن الله الشره . فهذا يدل على انه لم يكن يري العمى خيرا وان تحدث بذلك اكثر من مرة .

نعم ،انه قد تعزى عنه ، وصبر عليه، وكان يذكر نفسه بالضرير .ولكن ذلك ليس الا أثراً من آثار اطمئنانه الفلسفى كما قدمنا

٤

والظاهر ان هذه الحياة التى احتملها أبو العلاء في المعرة قد ثقلت عليه فملها ، ورأى أنها لاتصلح له ، وأن نفسه لاتستطيع أن تطمئن الي عيش ملؤه الخمول وقلة العمل،و أن المعرة لاتحتوي من العلم على ما يحتاج اليه ، وكذلك مدن الشام ، وان بغدادهى دارالعلم وموطن الادب والفلسفة . فاذا رحل فمن اليسير أن يجد ما يحتاج اليه من العلم والادب ، ومن الفلسفة والحكمة . وهو بعد ذلك يغالي بنفسه . ولعله كان يطمع في الشهرة والصوت البعيد . وليس الى ذلك من سبيل الا ببغداد

وقد ذكر مؤرخوه أنه انما سافر الى بغداد شاكياً تعرض صاحب حلب لمافي يده من الوقف الضئيل . وقد قدمنا مافي ذلك من الشك عندناوعند مرجليوث وسلامون

ونحن نعتقد ان حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش وبغض الحياة السياسية بحلب وما آلت اليه من الاختلاف والفتن هى التي كونت في نفس أبى العلاء عزمه على الرحلة عن بلاد الشام الى بلاد العراق

رحلته الى بغداد

مدينة بغداد

١

في سنة خمس واربعين ومائة للهجرة شرع أمير المؤمنين المنصور العباسي في اقامة مدينة يتخذها حاضرة لملكه حين تأذي بالهاشمية التي أقامها أخوه ابو العباس بن السفاح . قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يفسدون عليه جنده ، فاراد فراقهم . وفي سنة تسع واربعين ومائة تم بناء المدينة، فانتقل اليها المنصور، واصبحت حاضرة العالم الاسلامي الذي خضع لبني العباس بالفعل او بالاسم الى أن سقطت في أيدي التتار سنة ست وخمسين وستمائة

وفيما بين اقامة المنصور لها واسقاط التتار اياها اختلفت عليها أطوار رقى وانحطاط في كل شيء . فكانت حين أقامها المنصور مدينة جميلة عظيمة العمران تزدان بقصر الخلافة والقبة الخضراء وغيرها من رفيع البناء.

وقد وفر عليها المنصور أسباب النعمة والترف ، فساق اليها الماء ينفذ الى الدور والدروب ، حتي لا يتكلف أهلها الاستقاء من النهر ولم تمض عليها سنون حتي ضخم عمرانها ، وتجاوزت خططها

ما أحاط بها من السور ، وأصبحت مقر الأسرة المالكة من بني العباس ، ومقام الاشراف من العرب والفرس ، وملتقى التجار من أنحاء البلاد الاسلامية ، وكعبة يقصدها الشعراء والعلماء من اللغويين والرواة ، ومن الفقهاء والمحدثين ، ومن الاطباء والمنجمين ، ومن التراجمة والمعربين

وكان سلطان بني العباس يقوى بحسن بلائهم في جهاد الروم ، فينشأ عن قوة الدولة السياسية أمن البلاد وانتظام الجباية ، فيكثر مايحمل الى بغداد من الاموال . وانما كان يحمل اليها ضرائب العالم الاسلامي كله ، حاشي بلاد الاندلس . فكانت هذه الاموال الكثيرة ، والقوة السياسية العظيمة ، تستهوي أفئدة الناس الى بغداد ، فيأتون اليها ، ومنهم من يلتمس بها المقام لتحصيل القوت بالتجارة والصناعة ، ومنهم من يطلب حياة المناصب والدواوين ، ومنهم من يبتغي الصيت بالعلم والأدب ، ومنهم من يريد أن يلم بالمدينة ريثما ينشد الخليفة أو أحد أعوانه قصيدة تملأ يديه بالمال ، ثم ينقلب الى أهله راضيا مسرورا

والمدينة بعد قائمة على الجانب الغربي لدجلة ، وهي طيبة الهواء صافية الجو ، نقية أديم الشمس . فلما زهت وزارة البرامكة وعظم سلطانهم بني جعفر بن يحي فى أيام الرشيد قصراً فخما في الجانب

الشرقي للنهر . وانما أراد أن ينفرد فيه لألوان لهوه وخلاعته فيما يقول المؤرخون ، ولأظهار سلطانه وتدبير أمره فيما نعتقد . فلما أحس جعفر من الرشيد سوء الظن وخشى أن يسوءه مكان هذا القصر زعم له انه انما بناه للمأمون ، فقبل الرشيد منه . وكان هذا القصر السبب الاول في اقامة العمارات الضخمة على الجانب الشرقي لدجلة فأقام المعتضد التاج ، وأتمه المكتفي ، وانتقل الخلفاء اليه حيناً ، كما أن اتساع العمران ببغداد وازدحام السكان فيها ، وحشد الناس اليها من أطراف الارض زهد فيها الخلفاء ، فبني المعتصم (سر من رأى) وأقام بها الخلفاء حينا . على أن ضعف السلطان العباسي ، وقوة المتغلبين من الترك والديلم ، ثم كثرة الفتن التي نشأت عن تشغيب الجند ، وثورات الحنابلة ، والخلاف بين السنية والشيعة ، وانهماك الخلفاء والملوك في اللذة ، وكسلهم عن العناية بالقصور الضخمة ، والصروح الفخمة التي أقامها المنصور وبنوه ، كل هذه الاسباب أصابت بغداد بشيء من التخريب غير قليل . ولكن ما أصابها من النكبات على كثرتها وإن غير رسومها وشوه محاسنها لم يغير شيئاً من بنائها الخيالي الذي كان في نفوس العالم الاسلامي كافة ، فقد بقيت في نفوسهم مدينة العلم ودار الخلافة وحاضرة الاسلام . وكان لفظ مدينة السلام اذا أطلق مثل في

نفوس الناس صوراً مختلفة هي المثل العليا للارقى عنده ، فهو يمثل في نفس التاجر أرقى مدن التجارة ثروة وأحسنها نظاما واكثرها أمناً ، وفي العالم أرقى مدن العلم درساً واكثرها عدد علماء نابغين وأوفرها كتباً ، وكذلك الحال في الاديب وغيره من أصحاب الفنون والصناعات

فأما الفقهاء والمتكلمون فحدث ما شئت عن شغفهم ببغداد وهيامهم فيها ، وعما كان لهم من مجالس المناظرة والجدال . حدث ماشئت ولا تخش معترضاً أو مكذباً ، ولكن خف شيئاً واحداً يمكن أن ينالك منه ما تكره ، وهو ذلك الأسى المؤلم الذي يملأ قلبك اذا ذكرت هذا المجد العلمي القديم الذي اندرس ولم يورثنا الا الحسرة والاحاديث

لم تكن الحالة السياسية في بغداد راقية أيام ابي العلاء ، بل كانت في شر منازلها من الضعف والافتراق . . خليفة مغلوب على أمره ، وملك من بني بويه قد عجز عن تدبير ملكه ، وجند لا ينفكون في ثورة وهياج لسوء التدبير وكثرة المطامع وانقطاع الارزاق

فأما الحياة العلمية فقد كانت على شدة الاضطراب السياسي غضة نضرة . وربما امتاز عصر أبي العلاء بالمجامع العلمية ببغداد ،

فقد كان للأدباء على اختلافهم مجمع زعيمه الشريف الرضى ، ومجمع آخر حول الوزير سابور بن أردشير الذي خصص الثعالبي في اليتيمة فصلا لمداحه . وكان هناك مجامع فلسفية وكلامية منها العامة التي يشهدها الناس كافة كمجمع الشريف المرتضى ، ومنها الخاصة التي لا يشهدها الا أفراد تآخوا واتفقوا على ألا يحضر اجتماعهم الا من نحا نحوهم في الرأي كالمجمع الذي كان يلتئم يوم الجمعة من كل أسبوع في بيت أبي احمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الصوت البعيد في علم تقويم البلدان . وكانت المحاضرات العامة تلقى على الناس من أئمة اللغة والفقه والكلام . وحسبك أن تعلم ان أبا حامد الاسفرايني ، وهو من فقهاء الشافعية ، كان يحضر درسه في الفقه سبعمائة من الطلبة : منهم التلاميذ المتعلمون والاساتذة المعلمون ، والرجوع الى ترجمته في وفيات الاعيان يدلك على صحة ما نقول

أما مجالس المناظرة في الفقه والكلام فيمثل جلال خطرها شعر أبي العلاء ونثره أحسن تمثيل . وكان ببغداد في عهد أبي العلاء مكتبتان عامتان انفردتا بالشهرة في الآفاق وبالخلود في التاريخ: احداهما قديمة أسسها الرشيد وهي « بيت الحكمة » ، والاخرى حديثة أنشأها سابور بن أردشير سنة احدى وثمانين وثلثمائة ،

وقد وصفها ياقوت عند كلامه على محلتها وهى بين السورين فقال: انها اشتملت على أصح الكتب وأوثقها في كل فن وقلما خلا كتاب من كتبها من خط امام معروف، قال: وقد احترقت هذه المكتبة سنة سبع واربعين واربعمائة حين دخل السلاجقة بغداد

ولئن كنا قد أطلنا القول في وصف بغداد فما أدينا بعض حقها التاريخي من حيث هى مدينة كانت منزلتها عند المسلمين في عصر أبي العلاء وقبله أشبه بمنزلة باريس خاصة والمدن الكبرى الاوربية عامة عندهم الآن، فانك لا ترى في العالم الاسلامي كله شاباً أتم الدرس في بلده الا وهو يتحرق شوقاً الى الرحلة الى احدى هذه المدن ليدرس العلم في أصفى موارده وأعذب مناهله، وكما أن ناساً يذهبون الى هذه الحواضر الاوربيه للهو واللعب لا للدرس والتحصيل فقد كان ناس في تلك العصور يرحلون الى بغداد لا يريدون الا الفسق والمجون

ومن هنا نقل ذم بغداد عن بعض العباد والصالحين، كما يذم باريس بل القاهرة طائفة منا الآن، وكذلك ذمت بغداد بالغلاء وانها لا تصلح الا للمترفين الذين يملكون القناطير المقنطرة، وذمها بعض الاعراب بأن أهلها متحضرون، وكأن اعرابياً دخلها فألجأه الفقر

الى خان حقير فلما عبثت بجسمه حشرات الفراش ذم المدينة كلها بكثرة البراغيث

هذه القيمة التاريخية لبغداد جعلت لها في الآداب خصائص أشبه بالاساطير التي تحيط بتاريخ رومية ، فاذا أردت أن تعرف تفصيل ذلك فاقرأ ما كتب في تاريخ بغداد من الكتب الطوال والقصار، وقد ذكرها ياقوت في معجمه الجغرافي بتفصيل لا بأس به

٢

الى هذه المدينة التي مثلنا صورتها في نفوس الناس وحقيقة حياتها التاريخية رحل أبو العلاء سنة ثمان وتسعين وثلثمائة لتلك الاسباب التي فصلناها آنفاً ، وقد أثبت ابن خلكان وتبعه جورجي زيدان بك ان أبا العلاء دخل بغداد مرتين . ولسنا نعرف ذلك في شعر أبي العلاء ولا في نثره ولا فيما كتب عنه القفطي والذهبي وياقوت والصفدي وهم الذين ينبغي أن يعتمد عليهم في تاريخه. وكذلك لم يذكر مرجليوث وسلامون ودائرة المعارف الاسلامية التي يكتبها المستشرقون أنه دخلها مرتين . وذكر ذلك رجل من الفرنج هو هيار الفرنسي في كلمة موجزة كتبها عنه في كتابه المختصر المعروف بتاريخ الآداب العربية . وكأنه اختصرها من ابن خلكان . والراجح عندنا أنه دخل بغداد آخر سنة ثمان وتسعين وثلثمائة فمكث فيها الى رمضان سنة

اربعمائة ، فالتبس الامر على ابن خلكان وقلده هيار وجورجي زيدان بك من غير بحث ولا تفكير

٣

والظاهر ان أم أبي العلاء مانعت فى سفر ابنها الى بغداد بادئة الامر ، فلما أفهمها أغراضه قبلت منه وأعانته وقد أعدله خاله أبو طاهر سفينة انحدر بها فى الفرات حتى بلغ القادسية . وهناك لقيه عمال السلطان فاغتصبوا سفينته واضطروه الى ان يسلك طريقاً مخوفة الى بغداد. فلما وصل اليها نظم قصيدة قدمها الى أبي حامد الاسفرايني الذي قدمنا ذكره يصف فيها سفره ويصور طريقه البرية الى بغداد تصويراً حسناً ويذكر ظلم عمال السلطان له وجورهم عليه ، ويعرض على أبي حامد اخلاقه ويطلب مودته ويستعينه على رد سفينته اليه . وفي هذه القصيدة يقول

لا وضع للرحل الا بعد ايضاع ... فكيف شاهدت امضائي وازماعي

ياناق جدي فقد أفنت اناتك بي ... صبري وعمري وأحلامي وأنساعي

اذا رأيت سواد الليل فانصلتي ... وان رأيت بياض الصبح فانصاعي

ولا يهولنك سيف للصباح بدا ... فانه للهوادي غير قطاع

الى الرئيس الذي إسفار طلعته ... في حندس الخطب ساع بالهدى شاع

يممته وبودي أنني قلم ... أسعى اليه وزأسي تحتي الساعي

على نجاة من الفرصاد أيدها ... رب القدوم بأوصال وأضلاع
تطلي بقار ولم تجرب كأن طليت ... بسائل من ذفار العيس منباع
ولا تبالي بمحل ان ألم بها ... ولا تهش لاخصاب وامراع
سارت فزارت بنا الانبار سالمة ... تزجي وتدفع في موج ودفاع
والقادسية أدتها الي نفر ... طافوا بها فأناخوها بجعجاع
ورب ظهر وصلناها على عجل ... بعصرها في بعيد الورد لماع
بضربتين لظهر الوجه واحدة ... وللذراعين أخرى ذات اسراع
وكم قصرنا صلاة غير نافلة ... في مهمه كصلاة الكسف شعشاع
وما جهرنا ولم يصدح مؤذننا ... من خوف كل طويل الرمح خداع
في معشر كجمار الرمى أجمعها ... ليلا وفي الصبح القيها الى القاع
ياحبذا البدو حيث الضب محترش ... ومنزل بين أجراع وأجزاع
وأغسل طمري سبعاً من معاشرتي ... في البيد كل شجاع القلب شراع
وبالعراق رجال قربهم شرف ... هاجرت في حبهم رهطي وأشياعي
على سنين تقضت عند غيرهم ... أسفت لا بل على الايام والساع
اسمع أبا حامد فتيا قصدت بها ... من زائر لجميل الود مبتاع
مؤدب النفس أكال على سغب ... لحم النوائب شراب بأنقاع
رضي وانصف الا أنني ربما ... اربيت غير مجيز خرق إجماع
وذاك اني أعطى الوسق منتحياً ... من المودة معطي الود بالصاع

ولا أثتمل في جاه ولا نشب ولو غدوت أخا عدم وادقاع
من قال صادق لثام الناس قلت له قول ابن أسلت قد أبلغت اسماعي
كأن كل جواب أنت ذاكره شنف يناط باذن السامع الواعي
إن الهدايا كرامات لآخذها ان كن لسن لاسراف واطماع
ولا هدية عندي غير ما حملت عن المسيب ارواح لقمقاع
ولم أكن ورسولي حين ارسله مثل الفرزدق في ارسال وقاع
مطيتي في مكان لست آمنه على المطايا وسرحان له راع
فارفع بكفي فاني طائش قدمي وامدد بضبعي فانى ضيق باعي
وما يكن فلك الحمد الجميل به وان أضيعت فاني شاكر داع

فانظر اليه كيف بدأ قصيدته بهذا المطلع الذي يمثل قوة عزيمته وشدة شكيمته وان لم يشتمل على معني طريف ولا على بدع مما يقول الشعراء ، ثم انظر كيف احسن مداعبة ناقته وحسها على السير في قوله :

ولا يهولنك سيف للصباح بدا فانه للهوادي غير قطاع

ثم أخذ في ذكر سفينته وانحدارها فى الفرات وجور العمال عليه عند القادسية متلطفاً في الوصف متخيراً فرائد اللفظ، واذ كان انما قدم هذه القصيدة الي فقيه فقد أحسن الأحسان كله حين خاطبه في وصف سفره البري باصطلاح الفقهاء ، فذكر ما يلزم السفر البعيد

فى الصحراء من قصر الصلاة والتيمم والجمع بين الفريضتين ، ثم انظر ابداعه فى ذلك اذ كنّى عن عددرفاقه وعن سراهم بالليل وتفرقهم بالنهار بما يفعل الحاج اذ يجمع حصا الجمار ليلة المزدلفة ثم يفرقها اذا أصبح . وانظر الى تلطفه في عرض حاله على الفقيه فى صورة فتوى وتعريضه بأنه يجزي المحسن اليه أضعاف احسانه فيصطنع الربا من غير أن يخالف اجماع المسلمين على تحريمه . وهو في كل ذلك لا ينسى نفسه ولا يغفل عن تسطير اخلاقه وتعديد شمائله،والفخر بأنه لا يلجأ الي الناس في اتقاء الفقر والتماس القوت . وانظر كيف عرض حاجته في استرداد السفينة على الشيخ بأعذب لفظ وأرق لهجة وأحلي أسلوب ، وكيف جمع بين الاعتراف بالضعف والافتخار بعزة النفس، وكيف أعفى ممدوحه من الالحاح وجزاه على النجح حمداً وثناء وعلى الاخفاق شكراً ودعاء ، فلم يكله الى الندم ان قصر ولم يوئسه من الثواب ان اجتهد . . كل ذلك في لفظ متين وأسلوب رصين قلما عثرت فيه بكلمة نابية أو تركيب فج أو معرض خلق ، وقلما صادفت فيه لغواً في المدح أو اسرافاً في الخشوع . . على أن هذه القصيدة لم تلق عضداً من أبي حامد فلم يرد سفينة الشاعر عليه لامر لم يفصله التاريخ .

وما نظن الا أن الرجل قد اجتهد فاصابه الاخفاق ، وجد

غيره في حاجة أبي العلاء فقضاها ، وهو رجل يعرف بأبي احمد الحكاري .

وقد شكر أبو العلاء هذه النعمه لآل حكار بعد احتجابه بمعرة النعمان في قصيدة جميلة بعث بها الي صديقه خازن دار العلم ببغداد وفيها يقول:

وعن آل حكار جري سمر العلا ... بأكمل معني لا انتقاص ولا غمط
فان ينسهم أمر السفينة فضلهم ... فليس بمنسي الفراق ولا الشحط
اولئك ان يقصر بك الجاه ينهضوا ... بجاه وان يبخل بنائله يعطوا

وهذه الابيات وما بعدها تمثل اعتراف الرجل بالجميل وشكره للصنيعة احسن تمثيل

كيف عرف الناس ببغداد

٤

لا يحدثنا التاريخ بشيء مفصل عن دخول ابي العلاء بغداد وعن لقاء الناس له واحتفالهم به ، ولكن الرجل قد كان له شيء من الشهرة سبقه الى العراق . ولعل قصيدته التي ساقها الى ابي حامد لفتت الناس اليه ، وكان دخول رجل من اهل العلم مدينة بغداد خبراً لا يكاد يعلمه الناس حتى ينسالوا الى زائرهم من كل وجه ليهدوا اليه الكرامة وليختبروه ويبتلوا علمه ، فلا شك في انهم سعوا الى ابي العلاء فلما

جالسوه وناقلوه القول فى فنون الادب بهرهم منه علم جم وفضل كثير فرحبوا به وخلطوه بأنفسهم كما قال ابو العلاء في احدى رسائله الى خاله ابي القاسم بعد رجوعه الى المعرة « ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد فقد أفردونى بحسن المعاملة واثنوا على في الغيبة واكرموني دون النظراء والطبقة» وقد روى ابن خلكان عن الحافظ السلفي عن القاضي ابي الطيب طاهر بن عبد الله قال : كتبت الى ابى العلاء المعري الاديب حين وافى بغداد وكان قد نزل في سويقة غالب :

وما ذات درلا يحل لحالب تناوله واللحم منها محال
لمن شاء في الحالين حياً وميتاً ومن رام شرب الدر فهو مضلل
اذا طعنت في السن فاللحم طيب وآكله عند الجميع مفضل
وخرفانها للأكل فيها كزازة فمالحصيف الرأي فيهن مأكل
وما يجتني معناه إلا مبرز عليم بأسرار القلوب محصل

فأجابني وأملى على الرسول في الحال

جوابان عن هذا السؤال كلاهما صواب وبعض القائلين مضلل
فمن ظنه كرماً فليس بكاذب ومن ظنه نخلا فليس يجهل
لحومها الاعناب والرطب الذي هو الحل والدر الرحيق المسلسل
ولكن ثمار النخل وهى غضيضة تمر وغض الكرم يجني ويؤكل
يكلفني القاضي الجليل مسائلاً هى النجم قدراً بل أعز وأطول

ولو لم أجب عنه لكنت بجهلها جديراً ولكن من يودك مقبل

فأجبته عنه وقلت

أثار ضميري من يعز نظيره من الناس طراً سابغ الفضل مكمل
ومن قلبه كتب العلوم بأسرها وخاطره في حدة النار مشعل
تساوى له سر المعانى وجهرها ومعضلها باد عليه مفصل
ولما أثار الحب قاد منيعه اسيراً بأنواع البيان مكبل
وقربه من كل فهم بكشفه وإيضاحه حتى رآه المغفل
وأعجب منه نظمه الدر مسرعاً ومرتجلا من غير ما يتمهل
فيخرج من بحر ويسمو مكانه جلالا إلى حيث الكواكب تنزل
فهنأه الله الكريم بفضله محاسنه والعمر فيها مطول

فأجاب مرتجلا وأملى على الرسول :

ألا أيها القاضي الذي بدهائه سيوف على أهل الخلاف تسلل
فؤادك معمور من العلم آهل وجدك في كل المسائل مقبل
فان كنت بين الناس غير ممول فأنت من الفهم المصون ممول
اذا أنت خاطبت الخصوم مجادلا فأنت وهم مثل الحمائم أجدل
كأنك من في الشافعي مخاطب ومن قلبه تملى فما تتمهل
وكيف يرى علم ابن ادريس دارساً وأنت بايضاح الهدى متكفل
تفضلت حتى ضاق ذرعي بشكرما فعلت وكفى عن جوابك اجمل

فعذرك في أني اجبتك واثقاً بفضلك فالانسان ينسهو ويذهل
وأخطأت في انفاذ رفعتك التي همي المجد لي منها أخير وأول
ولكن عداني أن أروم احتفاظها رسولك وهو الفاضل المتفضل
ومن حقها أن يصبح المسك عاطرا بها وهي في أعلى المواضع تجعل
فمن كان في أشعاره متمثلا فأنت امرؤ في العلم والشعر أمثل
تجملت الدنيا بأنك فوقها ومثلك حقاً من به تتجمل

فهذه المحاجاة الفقهية التي اظهرت اتقان ابي العلاء لدرس الفقه كما اظهرت سرعة بديهته ، وان خلت من الحقيقة الشعرية ، انما كانت من غير شك حين ظهر القاضي على القصيدة التي بعث بها ابو العلاء الى الاسفرايني ورأي الشاعر قد تعرض فيها للفقه وأحكامه فأحب ان يختبره ويمتحنه ولا شك في ان اسفار هذا الامتحان عن نجاح الشاعر قد حببه الى طائفة كبيرة من الفقهاء ، وقد قص ابو العلاء في رسالته الى خاله ابي القاسم على ان خاله ابا طاهر قد ارسل كثيراً من الكتب الى اصدقائه ببغداد يوصيهم به ، فكانوا كلما عرضت له حاجة احبوا قضاءها ، فأبى عليهم إيماناً بقول زهير :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ولا يعفها يوما من الذم يسأم

فهذا كله قد عرف ابا العلاء الى الناس وجمعهم حوله بمدينة السلام

٥

لن تظفر من التاريخ بشيء ان اردت ان تسأله كيف كان ابو العلاء يدرس العلم ببغداد ، ولكن مما لا شك فيه انه لم يجلس مجلس التلميذ من احد ، وانما كان يسعى الى دروس العلماء ومجالسهم كما يسعى الند الى الند والنظير الى النظير ، وقد حدثنا ابو العلاء عن نفسه انه منذ بلغ العشرين لم يحتج الى ان يطلب العلم من احد في العراق ولا في الشام

وروي المؤرخون أن أهل بغداد قرأوا على أبي العلاء ديوانه سقط الزند ، وهو خبر يحتاج الى شيء من الروية ، فان سقط الزند لم يجمع ولم يصر كتاباً الا بعد رجوع صاحبه من بغداد ، وفي هذا الديوان قصائد هن الجياد الغر لم ينظمهن الشاعر الا في عزلته كرثائه لامه ، وكالقصائد التي بعث بها الى أهل العراق ، فلعل البغداديين قد رووا عنه ما كان قد نظم من الشعر في شبيبته ، وليس ذلك بالشيء الكثير . فمن الميسور أن نحكم بأن أبا العلاء لم يكن في بغداد أستاذاً ولا تلميذاً ، على أنه انما رحل لامور منها الدرس ، فلا ريب في أنه قد زار المكتبتين اللتين قدمنا ذكرهما . وقد أشار المؤرخون الى زيارته مكتبة كانت في يد عبد السلام بن الحسين البصري ، ونظمها

مكتبة سابور بن أردشير التي أنشأها بين السورين سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ، وهي التي يسميها أبو العلاء في ديوان سقط الزند دار العلم

قال القفطي والذهبي : فعرض عليه عبد السلام مافي مكتبته من الكتب فلم ير فيها شيئاً غريباً اذ كان قد قرأها كلها بطرابلس الا ديوان تيم اللات فاستعاره منه ، وسافر الى المعرة وهو معه فرده اليه مع القصيدة المشهورة التي مطلعها

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا وموقد النار لا تكري بتكريتا

وهذا الخبر خطأ من غير شك يكذبه سقط الزند نفسه ، فان ابا العلاء انما استعار تيم اللات من صاحبه وتلميذه ابي القاسم التنوخي القاضي ، ولم يأخذ الكتاب معه الى المعرة وانما تركه عند عبد السلام وأوصاه ان يرده الى صاحبه . فلما وصل الي المعرة أشفق ان يكون عبد السلام قد نسي امر هذا الكتاب فنظم هذه القصيدة وبعث بها الى ابي القاسم يقص عليه القصة ، لا الي عبد السلام وفيها يقول ،

اهدي السلام الى عبد السلام فما يزال قلبي اليه الدهر ملفوتا
سألته قبل يوم السير مبعثه اليك ديوان تيم اللات ماليتا
هذا لتعلم أني ما نهضت الى قضاء حج فأغفلت المواقيتا

فأنت ترى ان القفطي والذهبي قد كتبا هذا الخبر من غير تثبت

ولا اناة ، وكأنهما لم يستوفيا درس سقط الزند . ومهما يكن من غموض التاريخ في شأن ابى العلاء ببغداد فانه قد دخل مكاتبها وقرأ مافيها من كتب الفلسفة والحكمة ، ومن دواوين الادب واللغة ، وعرف العلماء وحضر مجالس درسهم ومناظراتهم ، واشترك في المجامع العلمية والادبية العامة والخاصة ، فكان يحضر مجمع سابور بن أردشير وفيه يقول

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل ميهال

وكذلك كان يحضر المجمع الخاص الفلسفي الذي كان يأتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصرى ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها اليه

تهيج أشواقي عروبة انها اليك ذوتي عن حضور بمجمع

وكأن هذا المجمع السري هو الذي أسماه اخوان الصفاء لشيوع هذا اللفظ بين المسلمين في ذلك العصر ودلالته الخاصة على على جماعة فلسفية تشترك في الاغراض والآراء وذلك حيث يقول

كم بلدة فارقتها ومعاشر يذرون من أسف على دمويعا

واذا أضاعتني الخطوب فان اري لوداد اخوان الصفاء مضيعا

خاللت توديع الاصادق للنوى فمتي أودع خلى التوديعا

وكان يحضر مجمع الشريف المرتضى وسيأتي لذلك ذكر خاص. قال مرجليوث وسلامون: وكما كان الشعراء فى رومية القديمة ينشدون

الجمهور أشعارهم في الميادين العامة كان شعراء بغداد ينشدون قصائدهم في مسجد المنصور

ولسنا ننكر عليهما ماقالا ،وانما ننكر أن يكون الشعراء قد ورثوا هذه العادة عن غيرهم من الامم . فما زالوا يتناشدون أشعارهم بملأ من الناس في جاهليتهم واسلامهم،وفي بداوتهم وحضارتهم . ومن الاطالة التي لاخير فيها أن نتعرض لاثبات ذلك بالبرهان . وقد كان ابو العلاء يحضر هذه المجالس الشعرية بمسجد المنصور ،ولعله كان ينشد اشعاره فيه . فهذا يدل على ان ابا العلاء لم يترك بيتاً من بيوت العلم ببغداد الا ولجه، ولا مجلسا من مجالس الادب إلا حضره، ولا بيئة من بيئات الفلسفة الا اشترك فيها . ومن الواضح تأثير ذلك كله في حياته العقلية والخلقية . والذي يدرس تاريخ هذا العصر يعرف ان الصلة قد اشتدت فيه بين المسلمين وبلاد الهند بما كان لمحمود بن سبكتكين فيها من بعد الاثر وكثرة الفتوح

فلا جرم كثرت صلات أهل الهند ببغداد وانتشرت عروضهم وتجارتهم بالعراق ، فوفد الوافدون منهم على مدينة السلام ،وانتقلت معهم آراؤهم ومقالاتهم الدينية والفلسفية

ولعل ما كتب البيروني الذي عاصر ابا العلاء عن الهند قد وصل الى بغداد . ومن هنا نستطيع ان نجزم بأن الصلة الظاهرة

بين الفلسفة الهندية وعقول المسلمين لم تكن الا في هذا العصر

فلنذكر هذه القضية فانها ستفيدنا عند البحث عن فلسفة ابي العلاء

فكره في بغداد

٦

قدمنا ان الشاعر انما رحل الى العراق يلتمس الشهرة وخفض العيش ، ويفر من الحياة السياسية السيئة بحلب . فأما الشهرة فقد ظفر بها اذ لم يبق من أدباء بغداد وعلمائها وفقهائها من لم يعرفه ولم يعجب به . وأما الدعة السياسية وخفض العيش فلم يوفق اليهما . ذلك ان حال العراق لم تكن خيراً من حال الشام ولا سيما في عهد أبي العلاء ببغداد ، فان بهاء الدولة الذي كان يملكها حينئذ لم يكن ذلك الملك القوي الحازم ، بل كان ضعيفاً عاجزاً . فانتقضت عليه الامور غير مرة . وكذلك لم يتح لابي العلاء من الثراء ما كان يريد ، فان تشدده في العفة واباءه التكسب بالشعر وامتناعه عن سؤال الناس وضنه بكرامة نفسه جعل وصوله الى الثراء أمراً لا سبيل اليه ، فهو لا يمدح ملكاً ولا وزيراً ولا يقبل هبة ولا عطية ، والعلم ببغداد أكثر وارخص من ان ينفق في تحصيله المال . وفوق هذا كله لم يسلم أبو العلاء من حسد الحساد وحقد الحاقدين . وخليق بمثله أن يكون محسداً . ثم لم يسلم من ان يتلقاه بعض الناس بما يكره اما لخطأ منه أو لحسد من

خصومه . فأما الاول فقصته مع الشريف الرضي ، ذلك ان الصلة بينه وبين هذه الاسرة كانت متينة قوية، حتى رثى أبا أحمد والد الرضي والمرتضي حين مات في جمادى سنة اربعمائة ، ولكنه حضر مجلس المرتضي بعد ذلك، فجرى ذكر المتنبي، وكان المرتضي يكرهه ويتعصب عليه، وكان أبو العلاء يحبه ويتعصب له فانتقصه المرتضي وأخذ يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء لو لم يكن له الا قوله «لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاه، فغضب المرتضي وأمر باخراجه . ثم قال المؤرخون فسحب برجله حتى أخرج . ثم قال المرتضي لمن حضره أتدرون لم اختار الاعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبي ؟ قالوا : لا . قال انما عرض بقوله :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ليس يهمنا أن ندل على ما تمثل هذه القصة من حذق أبي العلاء في التعريض وقوة المرتضي في الفهم ، فمثل ذلك لم يكن نادراً في تلك الايام وانما يهمنا أن نلفت القاريء الى ما يمكن أن تترك هذه الحادثة في نفس رجل مكفوف نادر الذكاء غزير المادة قليل التصبر قوي الحس كأبي العلاء . ولولا ان التعصب للمتنبي قد كلفه الاساءة الى رجل يحبه ويجله لما أصابه من ذلك شيء

ومن الظاهر ان عداوة أسرة كأسرة المرتضي ليست بالشيء

الهين مع أنها كانت تناصي اسرة الخلافة وتماثلها في السلطان.. وأما الثاني وهو الحسد فقصته مع أبي الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي وكان أبو العلاء قد ذهب اليه ، فلما استأذن ،قال أبو الحسن، ليصعد الاصطبل أي الاعمى في لغة أهل الشام كما قال ياقوت، فلما سمعها أبو العلاء انصرف مغضباً ولم يعد الى ابي الحسن مرة أخرى . فما نشك في أن أبا الحسن انما قصد ايذاء زائره حين قال هذه الكلمة بمسمع منه،وما نرتاب في ان الحسد هو الذي انطقه بها .والذي يعنينا هنا أيضاً انما هو لفت القاريء الى تقدير الموقع الذي تقعه هذه الكلمة من نفس أبي العلاء .

ليس لنا أن نلوم في ذلك أحداً ، فان أبا العلاء لم يختر أن يكون متعصباً للمتنبي وشديداً على المرتضي، كما ان هذا لم يختر أن يكون متعصباً عليه ومهيناً لمادحه ورائي أبيه . وما اختار أبو العلاء أن يكون محسداً ولا ابتغى أبو الحسن ان يكون حاسداً ،وما آثر أبو العلاء أن يكون رقيق الاحساس دقيق الشعور عزيز النفس أصيد الجيد .وانما كل تلك خصال قهرية اجتمعت لازعاج أبي العلاء عن بغداد وانضم اليها خبر جاءه من معرة النعمان ينبئه بمرض أمه فاضطر الى أن يرجع ادراجه بعد ان اقام ببغداد سنة وسبعة أشهر

رجوعه منه بغداد

٧

يحدثنا أبو العلاء ان سببين اثنين صرفاه عن مدينة السلام وقد كان عازماً على ان يقيم فيها آخر الدهر : أحدهما الفقر، والثانى مرض أمه، وذلك حيث يقول في قصيدته التى بعث بها الى ابي القاسم التنوخي:

أثارنى عنكم امران والدة ... لم القها وثراء عاد مسفوتاً
احياهما الله عصر البين ثم قضى ... قبل الاياب الى الذخرين ان موتاً
لولا رجاء لقائيها لما تبعت ... عنسى دليلا كسر الغمد اصليتا

وقد طوى ابو العلاء عنا في شعره ونثره ذكر ما لقى من المرتضي وابى الحسن ولكن التاريخ قد حفظ لنا ذلك فاعاننا على فهم ماتلقاه في اللزوميات من ذم اهل بغداد احياناً كقوله

مالي وللنفر الذين عهدتهم ... بالكرخ من شاس ومن إيلاق
حلق مجادلة كشرب مهلهل ... شربوا على رغم بكأس حلاق

فلولا ان ابا العلاء قد لقى من هؤلاء شراً لما ذمهم على كثرة ماسترى بعد حين من مدحه بغداد وثنائه على أهلها في اللزوميات وسقط الزند والرسائل

ولئن كانت مغالاته بنفسه قد كافته نسيان هذه المساءات فان رقة حسه وشدة تأثره قد أنطقته بها عفواً فى هذين البيتين

ارتحل عن بغداد لست بقين من رمضان سنة اربعمائة كما تنطق بذلك رسالته الى خاله ابي القاسم، فسلك طريق الموصل ولقي فيه ألوانا من الخوف حتى انتهى الي بلده

احتفال أهل بغداد بوداعه وحزنهم لسفره

٨

ويحدثنا أبو العلاء في هذه الرسالة وغيرها ان أهل بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر حتى ارتاعوا له وألحوا في نهيه عنه وبذلوا له الاموال ورغبوه في الوان النعمة ، فأبى ذلك كله . وكأن نفسه قد انصرفت عن الدنيا اتم الانصراف فلم يبق الا أن يمضي لما أراد من العزلة

حزنه على بغداد

٩

لقد كان أبو العلاء حين زار العراق شديد الحزن على المعرة لا يسليه عنها الكرخ وما فيه من ماء عذب وظل ظليل ، ومن علم جم وأدب غض، ومن كل مايشتهي الانسان للذات نفسه وجسمه، وكان بعده عن أهله واصفار يده من المال وعزة نفسه عن سؤال الناس تضاعف في قلبه هذا الحزن، وتذكى في نفسه هذا الاسى،

فأنشأ في ذلك قصيدتين من خير ماحوى سقط الزند — ومانشك في انهما قد زادتا رفعة قدره في العراق حتى ان بيتا من احداهما جرى على السنة الظرفاء ببغداد من الفتيان والفتيات مجرى الامثال، فقد روى ياقوت أن رجلا خرج ببغداد على سبيل (الفرجة) كما يقول، فجلس على الجسر فمرت امرأة حسناء القيها شاب ظريف فقال رحم الله علي بن الجهم . قالت رحم الله أبا العلاء . ومضى كل منهما لوجهه. قال الرجل فتبعت المرأة أسألها عن شيء سمعته ولم أفهمه فأجابت أراد قول علي بن الجهم

عيون الها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت قول أبي العلاء

فيادارها بالحزن ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فهذه القصة تمثل كلف الناس بهذه القصيدة لابي العلاء، وليست القصيدة الاخرى لابي العلاء بأقل منها نضجاً ومتانة ودقة معنى، يقول في الاولى :

وكم همّ نضو أن يطير مع الصبا الى الشام لولا حبسه بعقال

ويقول :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما رماني اليه الدهر منذ ليال

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال

ولنلاحظ أن ماء المعرة الذي يتمناه ويتشوق اليه انما هو ماء آبار لا يقاس الى ما في دجلة من عذب سلسبيل ويقول

أإخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا أخبرتكم بمحال
أنبئكم أني على العهد سالم ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضلي وحده على بعد أنصاري وقلة مالي
ندمت على أرض العواصم بعدما غدوت بها في السوم غير مغال

ويقول في الثانية ،

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا رزيّ الامانى لا أنيس ولا مال
مقل من الاهلين يسر وأسرة كفي حزنا بين مشت واقلال

ويقول :

متى سألت بغداد عني وأهلها فاني عن أهل العواصم سائل

ويقول :

وماء بلادي كان انجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

ويقول :

فياوطني ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم لساكنك البال

ويقول

وكم ماجد في سيف دجلة لم أشم له بارقا والماء كالمزن هطال

ويقول

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زار والدنيا حظوظ وإقبال

فهذا الحزن الشديد الذي يصل بين نفس الشاعر وبين وطنه القديم لم يمنعه أن يحزن على بغداد حين فارقها حزنا أشد منه أثراً في النفس وأبقى منه ندوباً في القلب : حزنا لزمه طول حياته ولم تسله عنه فلسفته ولا حكمته ولم يرحه منه استهزاؤه بالدنيا ، واطمئنانه الى أحكام القضاء ، بل نطق به نثره ونظمه وظهر في شعره الفلسفي فقال في اللزوميات

يالهف نفسي على أني رجعت الى هذي البلاد ولم أهلك ببغداذا

اذا رأيت أموراً لا توافقني قلت الاياب الى الاوطان أدّي ذا

وانظر كيف استبقى حزنه على بغداد مع اعتقاده انه لم يفد منها ديناً ولا دنيا فقال :

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتي الا السفاهة والخرق

وليس أبو العلاء وحده الذي فارق بغداد فلزمه الندم عليها طول حياته ، بل هناك قوم يحصيهم التاريخ فارقوا بغداد كارهين فبكوها أمر بكاء

حتى اننا لنستطيع ان نؤلف سفراً خاصاً ممتعاً في الآداب لايحتوي الا على ما قال الكتاب والشعراء في الحزن لفراق بغداد.

من هؤلاء الذين جزعوا لفراق بغداد القاضي أبو محمد عبد الوهاب ابن علي بن نصر المالكي، فقد نبا به المقام ببغداد كما نبا بأبي العلاء، فخرج يريد مصر وخرج معه أهلها يودعونه، فأخذوا يتوجعون لفراقه فقال: والله لو وجدت عندكم في كل يوم مدا من الباقلاّ مافارقتكم ثم أنشد:

سلام على بغداد من كل منزل ‏ ‏ وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ‏ ‏ واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها ‏ ‏ ولم تكن الارزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه ‏ ‏ وأخلاقه تنأى به وتخالف

وانما آثرنا هذا الرجل من بين الذين فجعوا بفراق مدينة السلام لانه مر في طريقه الى مصر بمعرة النعمان فضيفه ابو العلاء واكرمه وفي ذلك يقول:

والمالكي بن نصر زار في سفر ‏ ‏ بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
اذا تفقه احيا مالكا جدلا ‏ ‏ وينشر الملك الضليل ان شعرا

قال ياقوت: وقد وجد مكتوبا على حائط بجزيرة قبرص.

فهل نحو بغداد مزار فيلتقي ‏ ‏ مشوق ويحظي بالزيارة زائر

الى الله اشكو لا الي الناس انه على كشف ماالقي من الهم قادر

وكأن بغداد في ذلك العصر كانت تفيض منها تلك العين القصصية التي لا يشرب منها شارب الا كاف بقربها

نعم،لقد كان فيها ذلك المورد العذب وهو مورد العلم الذي وصفه ابو العلاء فقال في رسالته الى خاله ابي القاسم.ووجدت العلم ببغداد اكثر من الحصى عند جمرة العقبة ، وارخص من الصيحاني بالجابرة وامكن من الماء بخضارة، واقرب من الجريد باليمامة، ولكن على كل خير مانع ،ودون كل درة خرساء موحية او خضراء طامية

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

من هنا نفهم السبب الذي انطق ابا العلاء من الشعر والنثر في الحزن على بغداد بما استغرق من دواوينه ورسائله حظاً غير قليل، فمن ذلك وداعه لها حين فارقها وهي قصيدة جيدة في سقط الزند يقول فيها

نبي من الغربان ليس على شرع يخبرنا أن الشعوب الى صدع
أصدقه في مرية وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع

ويقول

أودعكم ياأهل بغداد والحشى على زفرات ماينين من اللذع
وداع ضن لم يستقل وانما تحامل من بعد العثار على ظلع

ويقول :

فبئس البديل الشام عنكم وأهله ... على أنهم قومي وبينهم ربعي
الا زودوني شربة ولو آنني ... قدرت اذا أفنيت دجلة بالجرع
واني لنا من ماء دجلة نغبة ... على الخمس من بعد المفاوز والربع

ويقول :

أدرتم مقالا في الجدال بألسن ... خلقن لجانبن المضرة للنفع

ويقول

أظن الليالي ـ وهي خون غوادر ـ ... بردي الى بغداد ضيقة الذرع
وكان اختياري أن أموت لديكم ... حميداً ، فما ألقيت ذلك في الوسع

ويقول

فدونكم خفض الحياة ، فأننا ... نصبنا المطايا بالفلاة على القطع
تعجلت ان لم أثن جهدي عليكم ... سحاب الرزايا وهي صائبة الوقع

ولو انا ذهبنا نروي ماقال أبو العلاء في الحزن على بغداد لطال بنا القول فايرجع الى ذلك فيما نشر من شعره ونثره فهو كثير

١٠

موت أمه

في طريق ابي العلاء الى المعرة بلغه نعي أمه، فكان لوقعه في نفسه من شديد الالم ولاذع الحزن ما انطقه بقصيدتين مسطورتين

في سقط الزند، وبكثير من النثر المسطور في الرسائل، وتم لنفسه بناء هذا البيت المظلم من الحزن الذي لزمه بقية حياته

لزمه فمثل له الاشياء كلها سيئة بشعة، وملأ قلبه صدوفاً عن الدنيا، وتزهدا في ملاذها، بل مقتالها، وسخطاً عليها

لقد بدأت حياة أبي العلاء بالمصائب ففقد بصره ولما ينض ثوب الرابعة من عمره، وفقد اباه ولما يعد الرابعة عشرة، ولزمه اثقل الاصحاب ظلا واسمجهم مظهراً، واقبحهم جواراً، وهو الفقر، وعثور الجد. فلما انحدر الى بغداد لقيته الايام بظلم عمال السلطان له، واعتدائهم على سفينته، ثم قدمت اليه ببغداد كاساً من الشهرة العلمية مزاجها اليأس من حسن المقام، ثم اخلفه الامل وعده، ونجز اليه اليأس وعيدة فشخص من بغداد كارهاً. وانه لفي الطريق يسايره الحزن، ويقوده الاسى، ويحدو به الفشل، واذا النعى يلقاه بموت تلك التى كان يدخرها سلوة عما جنت عليه الايام: من عثور الجد، وسوء الحال

كان لهذا الخبر في نفس ابى العلاء سورة عنيفة، بذل فيها آخر ما كان يملك من ثقة بالدهر، واطمئنان الى الايام. ورسالته الى خالد، ابى القاسم تمثل لنا هذه السورة احسن تمثيل. فانظر كيف ابتدأها فقال: (كتابى اطال الله بقاء سيدي ما طلع صبير، ورسا ثبير، من معرة النعمان ولكل نبأ مستقر، ووردتها بعد سآمة، وورود كعب بن مامة، فانا لله وانا

اليه راجعون، وله الحمد ممزوجاً به الدمع، مستكاً له من الوجد السمع، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته صلاة يثقل بها لساني حزناً، وترجح في المحشر قدراً ووزناً)

فلو ان القارئ استعان علم النفس في فهم هذه الطالعة وتحليلها، لظهر له انها ليست الا نسيجاً من تلك الزفرات الحارة التي كان يصعدها ابو العلاء حين وصل الى المعرة، فافتقد من كان يرجو لقاءه، ويحرص اشد الحرص على وداعه والتزود منه، ان لم يكن من فراقه بد، ولا عن بعده منصرف

نعم، هي نسيج من تلك الزفرات، يشوبها يأس قد اسخط ابا العلاء على كل شيء، حتى لم يرض ان يسدي الحمد الى ربه الا ممزوجاً بالعبرات المسفوحة من جفونه القروحة، ولم يقنعه ذلك حتى جعل هذا الحمد ثقيلا على سمعه، ثم لم يشأ أن يصلي على النبي حتى جعل الصلاة عليه عبئاً يثقل به لسانه، وان جاد به قلبه، على ان ما أتى في الرسالة من تلك الجمل التي ليست في الحقيقة الا قطعاً من الجمر لذاعة للقلوب، يمثل اضطراب نفسه وسورتها . فانظر الى قوله بعد ذلك :

الا ياليتني والمرء ميت وما تغني من الحدثان ليت

ياليت عمراً وليت ضلة سفه لم يغزفهما ولم يحل بواديها

لو ان صدور الامر يبدون للفتى كأعقابه لم تلفه يتندم

رحمك الله من ساكنة رمس ، اصبحت حياتك كأمس

فإن ينقطع منك الرجاء فانه   سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

ولا آمل بعدها خيراً ، ولا أزيد في المحن الا ايضاعاً وسيراً

صلى الاله عليك من مفقودة   اذ لا يلائمك المكان البلقع

أني حللت وكنت جد فروقة   بلداً يمر به الشجاع فيفزع

لابارك الله في الدنيا اذا انقطعت   أسباب دنياك من اسباب دنيانا

ياسلوة الايام موعدك الحشر . موعد والله بعيد . لا سلوة حتى يؤوب عنزي القرظة ، ويرجع النعمان الى الحيرة ، ويبعث نبي من مكة لو لم تكن الآجال زبراً لوجب أن أقتل بها صبراً . على اني والله قد أعلمتها اني مرتحل وان عزمي على ذلك جاد مزمع ، فأذنت فيه وأحسبها ظنته مزقة الشارب ، ووميض الخالب ، ولكل أجل كتاب وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جدد ، وشرحه إملال سامع وإفناء زمان

ألم تر اليه مكفوفاً يتخبط من الحزن في ظلمة داجية لا يكاد يتخلص من عثرة حتى تصيبه اخرى . فمن تمثل بشعر قديم الى توله بحزن جديد ، ومن خطاب لامه يتمثلها امامه الى حديث عنها وقد انقطعت الاسباب بينهما . ثم هو لا يكاد يسلي نفسه حتى يملكه الحزن والاسى فيقسم ما للسلوة الى قلبه من سبيل . انما هي احاديث نفس

مضطربة، وقلب غير مستقر، ولسان سيطرت عليه العواطف، فلم تترك للعقل سلطانا عليه .

اما القصيدتان اللتان نظمهما ابو العلاء فى رثاء امه فهما بالوصف اشبه منهما بالرثاء كما سترى عند الكلام على شعره . والظاهر ان مايحتاج اليه الشعر من الصناعة والأناة، ومن تكلف الوصف والتروي فيه هو الذي ذهب بحدة تلك العواطف التى تمثلها الرسالة الماضية. وعلى الجملة فان حياة ابي العلاء كانت ابلغ من شعره فى رثاء امه والحزن عليها . كان فقد ابى العلاء امه خاتمة ماقدر عليه زمن الفشل ولكنه كان اشد مالقي من صروف الدهر اثراً في نفسه لانه يأتلف من رزيتين احداهما فقد امه، والثانية فقد بغداد ، فان حرصه على لقاء والدته هو الذي اسرع به من مدينة السلام . ولو علم انه لن يلقاها لاحتمل مرارة العيش وألم الاعدام، وذلك حيث يقول في قصيدته التى بعث بها الى أبي القاسم التنوخى .

أثارنى عنكم أمران والدة ... لم ألقها وثراء عاد مسفوتاً

أحياهما الله عصر البين ثم قضى ... قبل الاياب الى الذخرين ان موتا

لولا رجاء لقائيها لما تبعت ... عنسى دليلا كسر الغمد اصليتا

ولا صحبت ذئاب الانس طاوية ... تراقب الجدي في الخضراء مسبوتا

هذا المزاج المؤتلف من الآلام والاحزان قد عمل عملا غير

قليل فيما أنفق أبو العلاء بمعرة النعمان من الايام بعد رجوعه من بغداد

اعتزال الناس

١١

أخص ما أنتج هذا المزاج في حياة الشاعر حمله على الوحدة واعتزال الناس ولزوم بيته لا يبرحه، والاستقرار ببلده لا يعدوه، فان ما لقى من أذى الدهر ولؤم الناس بغض اليه الاجتماع، وحبب اليه الانفراد. والظاهر أن في طبيعة أبي العلاء شيئاً من حب العزلة عرفه أبو العلاء في نفسه فقال في رسالة الى خاله أبي القاسم: « انه وحشي الغريزة أنسي الولادة » ونطقت لزومياته بكثير من الشعر الذى يؤيد مذهب الوحدة ويحث عليه. وسنعرض له عند الكلام على هذا الرأى في آرائه الفلسفية. فأما الآن فسبيلنا أن نحصي الاسباب التى حملته على هذه العزلة، فأولها هذه الغريزة التى ذكرها ودل عليها شعره ونثره، ومنها ذهاب بصره، فانه حين فقد عينيه جهل كثيراً من آداب الناس في حفلاتهم ومواضعاتهم في أنديتهم ومجالسهم، وهو كما قدمنا شديد الحياء عزيز النفس، فكان يكره أن يخطيء ما ألف الناس فيكون منهم مكان السخرية والاستهزاء، أو مكان العفو والمغفرة أو مكان الشفقة عليه والرثاء له. فآثر أن يتجنب عشرتهم ما استطاع ثم كان فقده أباه وأمه وشدة فقره وسوء معاملة الناس له. فقوي

ذلك كله في نفسه هذا الميل. ثم كان بعد ذلك فشله في الاقامة ببغداد حيث يلقى الفلاسفة وأهل العلم، ويحضر مجالس الجدل والمناظرة. ثم اضطراره الى الاقامة بمعرة النعمان، تلك التي لا تقاس الى بغداد لا صغارها من العلم وخلوها من العلماء، وكأن لذته بعشرة البغداديين قد بغضت اليه عشرة غيرهم من الناس فاجتنبها. فمثله في ذلك مثل الفقيه الذي رأى فيما يرى النائم كأن النبي تفل في فيه فأفاق وانه ليجد لريقه من العذوبة والحلاوة ما بغض اليه الطعام والشراب حتى مات

ولقد قدمنا ان أبا العلاء قد كان شديد الذكاء، دقيق الملاحظة. فما كان يسمع كلمة، أو يحس حركة أو يعرف حدوث حادثة ونزول نازلة الا بحث عن سرها، واستقصى مصدرها وغايتها، فلا شك في انه درس اخلاق الناس فأحسن درسها، وبلا نفوسهم فأجاد بلاءها. ثم لم ينتج له الدرس والابتلاء الا شراً. ولا ريب في انه قرأ من كتب الفلاسفة ماوافق هذه الاهواء في نفسه فاشتد بغضه للدنيا وسوء ظنه بالناس. حتى انه لما حدث خاله أبا القاسم عن احتفال البغداديين بوداعه وحزنهم لفراقه وعرضهم عليه الاموال والارزاق شك في كل مافعلوه من ذلك: أكان مصدره النفاق؟ أم الاخلاص. ولكنه شكر لهم محاسنتهم له على كاتا الحالين. فهذه الاسباب كلها هي التي الزمته داره وسمته رهن

المحسنين ، وهي تدل على انه لم يعتزل الناس الا بعد بحث وتفكير، وبعد روية واجالة نظر ، وبعد استشارة لاصدقائه ببغداد حين عزم على فراقها ، وتدلنا على ذلك رسالة كتبها الى أهل المعرة قبل أن يصل اليهم ، يخبرهم بعزمه على العزلة ، وينهاهم عن أن يحتفلوا بلقائه، ويرسم لنفسه هذا القانون الشديد الذي اتخذه اماماً الى أن مات . لم تصل هذه الرسالة الى أهل المعرة ، ولكنها حفظت في ديوان رسائله حتى انتهت الينا ، ولعلها أبلغ مايؤثر في وصف عزمه على العزلة ومجانبة الناس ، لذلك آثرنا روايتها . قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة، شملهم الله بالسعادة ، من احمد بن عبدالله بن سليمان خص به من عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها : أما الآن فهذه مناجاتي اياهم منصرفي عن العراق : مجتمع أهل الجدل، ومواطن بقية السلف، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروي من سانح النعام، وما ألوت نصيحة لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزي، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله فيه، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً، وعده اذا تم رشداً،

وهو امر اسري عليه بليل تقضي برقة، وخبت به النعامة، ليس بنتيج الساعة، ولا ربيب الشهر والسنة، ولكنه غذي الحقب المتقادمة، وسليل الفكر الطويل، وبادرت إعلامهم ذلك مخافة ان يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي بسكناه، ليلقاني فيه فيتعذر ذلك عليه، فأكون قد جمعت بين سمجين: سوء الادب وسوء القطيعة . ورب ملوم لاذنب له، والمثل السائر « خل امرءاً وما اختار » وماسمحت القرون بالاياب حتي وعدتها اشياء ثلاثة: نبذة كنبذة فتيق النجوم، وانقضابا من العالم كانقضاب القائبة من القوب، وثباتاً في البلد ان جال أهله من خوف الروم. فان أبي من يشفق علي او يظهر الشفق الا النفرة مع السواد كانت نفرة الأعفر أو الأدماء، وأحلف ما سافرت استكثر من النشب، ولا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . والجاهل مغالب القدر . فلهيت عما استأثر به الزمان والله يجعلهم أحلاس الاوطان لا أحلاس الخيل والركاب، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقة علي الظبي الغرير، ويحسن جزاء البغداديين، فلقد وصفوني بما لا استحقه، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم، وعرضوا علي أموالهم عرض الجد، فصادفوني غير جذل بالصنيعات، ولا هش الى معروف الاقوام، ورحلت وهم لرحيلي كارهون، وحسبي الله عليه يتوكل المتوكلون

هل يمكن أن يخيل الي باحث ان ابا العلاء انما ابتغى الوحدة وحرص عليها يتخذها طريقاً الى المجد وسبيلا الى النعمة بعد أن أعياه تحصيلهما من طريق عشرة الناس والاجتماع معهم . أما نحن فما يخطر لنا هذا الخاطر الا بمقدار ما نجتهد في دفعه وصرف القاريء عن تخيله. فان الماضي من حياة الرجل يدل دلالة واضحة على أنه قد كان ينفق أيامه ساذجاً غير متكلف، وعفيفاً غير متبذل. وليس من الحق أن المجد والنعمة قد اعجزا أبا العلاء. وانما الحق انه هو الذي أعجزهما. فلقد كان من اليسير عليه ان يعيش ببغداد ألواناً من العيش وهو واثق بالظفر والنجاح . كان يستطيع أن يعيش عيشة الشعراء فينال من سراة العراق ما يكفل له الثروة والغنى. وكان يستطيع ان يعيش عيشة اللغويين وان يحيا حياة الفلاسفة في عصره. ولكنه انصرف عن ذلك كله. ولم يرض الا هذا السجن الذي انفق بقية حياته فيه

انصرف عن ذلك، لان فطرته تأباه ، ولان ما اكتنف حياته من المؤثرات قد أعان هذه الفطرة على تعذيب صاحبها وأخذه بهذا القانون الصارم المحتوم . لقد رأى القفطي أن أبا العلاء انما لزم بيته وتزهد لفقره وعزة نفسه. وهذا حق. ولكنا نحسب أن أبا العلاء لو كان غنياً لما عدل بالزهد والعزلة شيئاً من نعيم الترف والاجتماع. فأما البرهان على ذلك فسيلقاك بعد حين

طوره الثالث

١

قف بنا الآن على دار بمعرة النعمان لم يصفها التاريخ، ولكنها كانت من غير شك ظاهرة الفقر: ليست بالجميلة ولا الزدانة، قد انزوى فيها رجل مكفوف نحيف في وجهه آثار الجدري، ترتسم على جبينه صور مختلفة تمثل حزنه على أمه حيناً، وألمه من عشرة الناس حيناً، وأمله في تلك السعادة التي يخبؤها له هذا السجن المظلم الذي لا يهتدي اليه النجم، ولا تصل اليه الظنون، وهذا الرجل لم يعد من عمره الثامنة والثلاثين

تحيل ما استطعت في أن تدخل هذه الدار، وتقف من هذا السجين بحيث تراه وتسمعه. ربما رأيت في ناحية من نواحي الدار خادماً قد جلس، وان الكسل ليعبث به، وان الخمول ليتسلط عليه، لانه لا يجد من الاعمال ما يفيده القوة والنشاط . . تلطف بهذا الخادم حتى لا يأتي من الحركات ما يؤذن هذا السجين بمكانك . خذ هذا السجين بعينك، وألق اليه سمعك، انك لتراه على ما قدمنا من الوصف، وقد التف في ثوب غليظ من القطن، وجلس على فراش من اللبد وهو يقول : مالي وللناس ؟ لقد بلوت أخلاقهم فلم ألق الا شراً، واختبرت طباعهم فلم أجد الا نكراً . فلتضربن بيني وبينهم الحجب، ولتسدلن

بيني وبينهم الاستار. لقد سمعت منهم فما نطقوا الا محالاً. ولقد تحدثت اليهم وتحدث اليهم قبلي الحكماء وأولو النهي فما أثروا الا طاعة الاهواء. وما استجابوا الا لدعاء الشهوات، فلتصمن عن حديثهم أذني ولينعقدن عن تحديثهم لساني. وليحجبن من قلوبهم شخصي. وليحسبني بعد اليوم من أهل القبور .. مالي وللدنيا! لقد أتيتها كارهاً، وعاشرتها كارهاً، ولاخرجن منها كارهاً. ولقد ذقت من لذاتها ما لم أرج، واحتملت من آلامها ما لم أحتسب. فاذا اللذة الى ألم، واذا السعادة الى شقاء، واذا الامل الى يأس، والرجاء الى قنوط. انى لاحمق ان لم أطرحها قبل أن تطرحني، وأزدرها قبل أن تزدريني، واملأ قلبي عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل. مالي وللازواج والنسل! لولا ان ابى قد قذف بى في هذه الحياة لما لقيت ألماً، ولما احتملت عناء. أفليس يقنعني أن أحتمل هذه الجناية حتى أنقلها الى بريء لم يجن ذنباً، ولم يقترف اثماً؟! مالي وللحيوان! اسخره في منافعي، واصرفه في مآربي، ولا يرضيني ذلك حتى استلبه من الحياة حقاً لا أملك استلابه، وأحمله من الالم قسطاً لا تدفعني الرحمة عن تحميله اياه!! لطالما روعت الفرخ بأمه، وجفعت الشاة بسخلها. ولطالما صرفت عن الفصيل دره، وغصبت النحل ثمرة كدها. وانى على ذلك لظالم اثيم. ان فيما تخرج الارض من النبات لدفعا للجوع، وان فيما تنزل السماء من الماء لشفاء للغليل، وان

في الحرص على مافوقهما اشرهاً أنا له كاره، وعنه عيوف. مالي ولنفسي ! لقد أصغيت لها حيناً فكلفتني اعاجيبها مشتي وفرادى . وما أراني أفدت من طاعتها الا الالم والكد وسوء الحال . فلآخذنها بقانون لا تجوزه وحد لا تعدوه . ولأملكنها بعد ان ملكتني . ولأسيطرن عليها بعد ان سيطرت عليّ . ولأوفرن على العقل حظه من القوة والسلطان

كذلك كان يتحدث هذا السجين الى نفسه حين لزم بيته آخر سنة أربعمائة : يبدأ سيرة قاسية ويلتزم مالا يلزم في كل شيء يعتزل الناس ومن حقه أن يلقاهم ، ويلبس خشن الثياب ومن حقه ان يتخير لينها ، ويأكل غليظ الطعام ومن حقه أن يتذوق رقائقه ، ويؤثر العزوبة والعقم ومن حقه أن يسكن الى الزوج وأن يتمتع بالنسل. ثم يلتزم في القافية حرفين وقد رخص له الله التزام حرف واحد فهل وفق الى تنفيذ هذا القانون ؟ نعم قد وفق الى تنفيذه لم يخل بأصل من أصوله الا شيئاً واحداً لم يستطع أن يظفر به ولا أن يصل اليه

فشل في طلب العزلة

٢

ذلك هو اعتزال الناس، فان الرجل لم يكد يبدأ سيرته الشاقة بمعرة النعمان حتى أخذ الناس يسعون اليه والحياء يحول بينه وبين

ردهم . والحق ان العزلة التامة لم تكن ميسورة لابي العلاء ، وانما كانت أمنية ضائعة، فانه وان زهد في كل لذات الحياة لا يستطيع أن يزهد فى العلم والتأليف اللذين قد ملكاه واستأثرا به. وكلاهما يكلفه عشرة الناس لاحتياجه الى من يقرأ له ويكتب عنه . لذلك لم يلبث بعد استقراره بالمعرة ان اشتغل بالتعليم، فالتف حوله الطلاب وأخذوا يدرسون عليه اللغة وآدابها . وما هو الا الزمن القليل حتي كثر سوادهم حوله . ثم لم تمض على هذه الحال اعوام حتى اخذ الناس يزورونه ويكتبون اليه ، فاستحالت عزلته الى اشد انواع المعاشرة. على انه لم يأسف لفوات هذه العزلة، لانه وان كثر اختلاطه بالناس فانه لم يصله بهم الا العلم . وليس فى العلم ما يؤذيه أو يسوءه

شهرته

٣

ليس من المنتظر أن يشتغل رجل كأبي العلاء بالدرس والتعليم في بلاد كبلاد الشام من غير أن يكثر سواد طلابه، لما علمت من قيمة الرجل في نفسه ، ومن حرص الناس على العلم في ذلك العصر . ولقد كان ابو العلاء في القرن الخامس باقليم حلب كابن خالويه في القرن الرابع . فتسامع به اهل حلب خاصة ، ثم اهل الشام عامة، ثم أهل البلاد الاسلامية جميعاً. واخذ الطلاب يفدون عليه من اقطار

الارض يحتقرون في سبيل ذلك بعد الشقة وضعف المنة وقلة المال. حتى لقد رحل الخطيب التبريزي اليه من خراسان ماشيا يقل اثقاله لعجزه عن مطية تبلغه غرضه. ثم اتصلت الرسائل بين ابي العلاء وبين عظماء الشام والعراق: وفيهم الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وأصحاب المكانة. وظفر الرجل من بعد الصيت بما نظن أنه ما كان يظفر به لو أقام ببغداد لكثرة الخصوم والمنافسين

موضوع درسه

٤

لا نعرف أن أبا العلاء درس شيئاً غير اللغة وآدابها . فهو لم يكن استاذ فلسفة ولا دين، وانما كان استاذ لغة وأدب. غير اننا اذا فهمنا من لفظ الفلسفة هذا النحو الذي اشتملت عليه اللزوميات ولم نقصره على الفلسفة العلمية، لم يكن بد من الاعتراف بأن ابا العلاء قد درس لطلابه الفلسفة ايضاً، لانه كان يملي عليهم شعره ونثره، ويفسر لهم منه ما احتاج الى التفسير

انهامه بالزندقة

٥

هذه الدروس الفلسفية التي كان يلقيها أبو العلاء كأنها دروس

في اللغة والادب قد شاعت عنه وتناقلها الناس وشاع معها ذلك القانون الذي قدمنا ذكره . فرأى الناس من ذلك شيئاً لم يعرفوه . وما زال في أهل الارض المنكر للجديد الساخط على الحديث. فرموا الرجل بالزندقة،واتهموه في دينه . وسندرس هذا الموضوع في المقالة الخامسة ، وانما ذكرناه الآن لننتقل منه الى أمرين أحدهما أن وصمة الزندقة قد جرت عليه ألوانا من الاذى . ولكنه أذى يستهين به الفيلسوف، لانه لايتجاوز الشتم والتشنيع.فقد دخل عليه ذات يوم رجل من قراء المعرة يعرف بأبي القاسم . فطلب منه بعض الناس أن يقرأ شيئاً من القرآن، فتلا قول الله عز اسمه « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » وانما يريد ايذاء ابي العلاء . وكأن هذه النية السيئة قد آلمت الرجل حقاً وان لم يظهر ألماً . فانه قال فى هجاء هذا الرجل :

هذا ابو القاسم اعجوبة لكل من يدري ولا يدري
لاينظم الشعر ولا يقرأ القرآن وهو الشاعر المقري

ودخل عليه الوزير المشهور بالمنازي ،فسأله : ماهذا الذي يرويه الناس عنك ؟ قال: قوم حسدوني فكذبوا على. فأجاب المنازى: وعلام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟ قال المنازي :فقال أبو العلاء: والآخرة ؟ ثم أطرق ولم يكلمني حتى قمت عنه . وزاره بعض القضاة

فقال له أبو العلاء: لم اهج احدا . قال. صدقت الا الانبياء: قال: فتغير لونه .. فهذه الانباء تدل على ان ناساً كانوا يتعمدون ان يلقوا الرجل بالاذى . وكان ذلك ربما بلغ من نفسه .

الامر الثاني ان وصمة الزندقة لم تصبه بسوء في نفسه ولا في شهرته العلمية . فما زال طلابه كثيرين الى ان مات. وما زال خصومه واصدقاؤه يشهدون له بالعلم الجم والذكاء النادر والتفوق الكثير . وما علمنا انه بات ليلة على خوف من حاكم او سلطان الا ما كان من قصة يروونها . ومانشك في انها كذب صريح .

قالوا : ان وزير حلب بعث الى ابى العلاء خمسين فارساً ليقبضوا عليه ، فأنزلهم مجلساً له ، ودخل عليه عمه فقال له : ما كان اغناك واغنانا عن هذا . فهون ابو العلاء عليه الامر . فلما كان الليل استقبل المريخ واخذ يتلو اجاجى غامضة ويقول: الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير . قالوا فما اتم كلامه حتى سقط المجلس على من فيه فقتلهم . واصبحوا فاذا رسالة من حلب على جناح حمامة: الا تروعوا الشيخ فان الحمام قد سقط على الوزير فقتله . مع ان هذه القصة تكذب نفسها. فان عم ابي العلاء مات قبل ابيه . ولم يكن ابو العلاء ينتحل السحر ولا يعرف الطلسمات . فان سألت عن علة هذه الحرية التى اطلقت لابى العلاء فسنجيبك عن هذا السؤال في المقالة الخامسة ان شاء الله.

اتصاله بالسياسة

٦

لم يكن لابى العلاء بالسياسة العملية كبير اتصال . ذلك لان ذهاب بصره يحول بينه وبين لقاء الملوك والامراء اذا لاحظنا ان ان حياءه كان شديداً ، وان حرصه على الا يظهر تقصيره عن شأو المبصرين فى الاوضاع العامة كان عظيما . كما ان فطرته ودرسه وفلسفته وجملة حياته المادية والعقلية كانت تحول بينه وبين قصور الملوك والامراء ودواوين المشورة والحكم. وقد دعي الرجل الى منادمة عزيز الدولة (١) الذي قدمنا تعيينه في المقالة الاولى فاعتذر بكبر السن وقلة البضاعة

ومن الحق ان بضاعته كانت قليلة ان أريد منه أن يكون نديماً. فان رجلا لا يعرف الا الحق والصراحة، ولا يطمئن الى ما مضت به سنة الناس من نفاق ومداجاة لا يغني في منادمة الملوك غناء. وهو يتعرض بكثرة علمه، وظهور فضله، وغزارة مادته، وسلامة صدره من الغل، ونفسه من الاذى الى طوائف من الحساد مسلحين بالمكر والخديعة، وبالوشاية والنميمة، وبالنكاية والوقيعة، وهو بين ايديهم أعزل لا يعتز من هذه الخصال بسلاح، ولا يأوي منها الى ركن شديد .

---

(١) الرسائل ص ٦٠ اكسفورد و ٩٢ بيروت

فليس من الغريب ان يأبى هذه المنادمة. وانما من الغريب ان يجيب اليها

ولقد اكره ابو العلاء على ان يكون سفير قومه عند صالح بن مرداس حين حاصر المعرة والح عليها، فأحسن السفارة. ولولا شهرته وصيته وحرص صالح على ارضائه ورقة لهجته في الشفاعة لقومه لما صنع شيئاً. نقول انه قد اكره على هذه السفارة. وانما اكرهه تضرع قومه اليه ورقة قلبه لهم. على انه لم يعد من عند صالح حتى اعلن الم لهذه السفارة واتهم قومه وصالحاً بالنفاق فقال.

تغيبت في منزلي برهة　　ستير العيوب قليل الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل　　وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح　　وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام　　واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هذا النفاق　　فكم نفقت محنة ما كسد

فانظر الى هذين البيتين الاخيرين: كيف مثل بأولهما ضعفه ورقة قلبه وقرنهما الى قوة صالح وغلظته، فنتج عن هذه المقارنة مزاج فلسفي جميل: هو فصل ما بين الزهد الشديد والانهماك على ملاذ الدنيا من القوة والبطش، ومن الاستطالة والسلطان. واعلن في الثاني نفاق الذين سعوا اليه فتوسلوا به، ونفاق الذى قبل شفاعته واستجاب دعاءه، وأن حب النفس هو الذى سعى بأولئك القوم اليه وعطف ذلك

openkanda.com

المتغلب عليه ولولا تلك المحنة لما حفل به حافل ولا سعى اليه ساع.
لعل غلو ابى العلاء في الحذر من الناس وسوء الظن بهم وشدة الاتهام لهم هو الذي انطقه بهذين البيتين، ولكنهما يدلان من غير شك على ان الرجل لم يكن يصلح لعمل سياسي ما، لان السياسة تحتاج الى ألوان من الاخلاق ليس لابي العلاء منها شيء

٧

وهذا أوان البر بما وعدنا به في المقالة الاولى من تحقيق قصة صالح ومحاصرته المعرة. فقد اختلف فيها المؤرخون اختلافاً كثيراً، ولم يستطيعوا أن يجزموا بمصدرها، ولا أن يتفقوا على نتيجتها. ولا علة لذلك الا انهم لم يدرسوا حياة ابى العلاء. ولو انهم درسوا اللزوميات لاستطاعوا ان يستنبطوا الحادثة منها، فان أبا العلاء قد ذكر سببها ونتيجتها، وشفاعته فيها، وذلك في ثلاث مقطوعات من اللزوميات تفرقت بين باب الدال والراء واللام. فأما سبب الحادثة فهو ان امرأة لم يسمها أحد من المؤرخين، ولكن أبا العلاء سماها « جامع » اقبلت يوم الجمعة على الناس وهم في مسجدهم، فشكت اليهم: ان اصحاب الماخور تعرضوا لها وأرادوها بمكروه، فغضب لها الناس، وهدموا الماخور، وهراقوا مافيه من خمر، وافسدوا ما فيه من اداة لهو وطرب.
وقد رضي أبو العلاء عن هذا كل الرضي وحمده أحسن حمد فقال

أتت جامع يوم العروبة جامعاً ... تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها ... لحلت سماء الله تمطر جمرها
فهدوا بناء كان يؤوي فناؤه ... فواجر القت للفواحش خمرها
وزامرة ليست من الربد خضبت ... يديها ورجليها تنفق زمرها
الفنا بلاد الشام الف ولادة ... نلاقي بها سود الخطوب وحمرها
فطورا نداري من سبيعة ليثها ... وحينا نصادى من ربيعة نمرها
أليس تميم غير الدهر سعدها ... أليس زبيد اهلك الدهر عمرها
وددت باني في عماية فارد ... تعاشرني الاروي فاكره قمرها
افر من الطغوى الى كل قفرة ... أوانس طغياها وآلف قمرها
فاني ارى الآفاق دانت لظالم ... يغر بغاياها ويشرب خمرها
وان كانت الدنيا من الانس لم تكن ... سوى مومس افنت بما ساء عمرها
تدين لمجدود وان بات غيره ... يهز لها بيض الخروب وسمرها
وما العيش الا لجة باطلية ... ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها
ومازالت الاقدار تترك ذا النهي ... عديما وتعطي منية النفس غمرها
اذا يسر الله الخطوب فكم يد ... وان قصرت تجني من الصاب تمرها
ولولا اصول في الجياد كوامن ... لما آبت الفرسان تحمد ضمرها

فانظر الى هذه القصيدة: كيف شرحت الحادثة احسن شرح وكيف مثلت سخط الشاعر على الحياة السياسية في الشام خاصة

لاستبداد العرب بها ، وفي المملكة الاسلامية عامة لتسلط الظالمين عليها . ثم سخط على الدنيا وخضوعها للمصادفة والحظ . ثم تمنى لو انه استطاع ان يعتزل الانسان ، ويألف وحش الفلاة . فلو ان المؤرخين قرأوا هذه القصيدة لما اضطربوا في هذا الامر ، ولما اوقعوا من بعدهم من الباحثين في هذا الاضطراب . على ان ابا العلاء لم يفصل لنا ما كان بعد ذلك من سخط صاحب حلب او احد عماله المسيحيين على اهل المعرة ، ومن حصار صالح لها . والظاهر ان صاحب حلب قبض على سبعين من اهل المعرة كما يقول الصفدي ، وان اهل المعرة كرهوا ذلك فثاروا واشتد الامر وعظم الخطب حتى دعا أهل آمد وميا فارقين في مساجدهم لاولئك الاساري ، ثم كان من حصار صالح لاهل المعرة وشفاعة أبي العلاء عنده وعفوه عن المدينة والاساري ماقدمناه وذكره المؤرخون . وقد اتفقوا جميعاً على ان صالحاً قال لابي العلاء بعد أن سمع شفاعته : قد وهبتها لك : يريد المعرة . فلنحتفظ بهذه الكلمة فستفيدنا في تحقيق ثروته . رجع أبو العلاء من عند صالح وهو يقول .

نجى المعرة من براثن صالح ... رب يداوي كل داء معضل
ماكان لي فيها جناح بعوضة ... الله أولاهم جناح تفضل

٨

لابي العلاء شفاعات الى اولياء السلطان في ناس كانوا يتشفعون به ، ولكنه كان يجعل حظ الانشاء والافتنان اللفظي في تلك الشفاعات اكثر من حظ الذى توسل به ورغب اليه . أما نظره في الحياة السياسية في الشام ومصر وفى العراق والهند فكثير يظهر عليه من قرأ اللزوميات وسقط الزند . ولقد أشرنا في المقالة الاولى الى الابيات التى قالها حين غلب صالح بن مرداس على حلب . والظاهر أن تأثير هذه الفتنة في نفسه كان شديداً ، فذكره في قصيدة من سقط الزند بعث بها الى خازن دار العلم ببغداد فقال :

وما أذهلتني عن ودادك روعة ... وكيف وفي أمثاله يجب الغبط
ولا فتية طائية عامرية ... يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرانها ... الي نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعانون مازال للقنا ... مع الشيب يوما في عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم ... وج يتمني ان فارسه سقط
ونبالة من بحتر لو تعمدوا ... بليل اناسي النواظر لم يخطوا

وله في السياسة النظرية رأى نذكره عند الكلام على فلسفته في المقالة الخامسة .

ثروته

٩

قدمنا في الطور الثانى من حياة أبي العلاء أن ثروته كانت ثلاثين ديناراً يغلها عليه في كل عام وقف له ولقومه، وأنه قد خصص نصف هذه الثروة لمن يخدمه واكتفي بنصفها لحاجته. ولم يخالف في ذلك أحد من المؤرخين، ونص عليه أبو العلاء نفسه في المناظرة التي كانت بينه وبين داعى الدعاة في أكل الحيوان. ولكن أمرين يعترضاننا ان شئنا ان نقف عند هذا الحد فى تحقيق ثروته: احدهما أن أبا العلاء نفسه يذكر في بعض شعره أنه ذاق الغني وعرف لذاته، وذلك حيث يقول في اللزوميات:

خبرت البرايا والتصعلك والغني وخفض الحشايا والوجيف مع السفر
فأطيب أرض الله ماقل أهله ولم ينأ فيه القوت عن يدك الصفر

فمن أين له الغنى وخفض الحشايا؟ مانشك في أنه قد مر بهما مرور الطيف في يوم من أيامه التي قضاها عند أخواله بحلب، أوعند أصحابه بمدينة السلام. ولعله ظن جلوسه على الفراش الوثير، وتمتعه بالطعام الشهى ساعة من نهار في دار سابور بن اردشير، أوعبدالسلام ابن الحسين ابتلاء للغنى. والثاني ان ناصري خسرو وهو الرحالة الفارسي قد مر بمعرة النعمان أيام أبي العلاء كما قدمنا، فقال فى وصفه:

ويحكمها: أي المعرة رجل ضرير يعرف بأبي العلاء عظيم الثروة يملك عدداً ضخماً من العبيد والخدم، وكأن سكان المدينة كافة خدمه

أما هو فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولا يغادر بيته ولا يأكل الا الشعير . وسمعت الناس يتحدثون بان بابه لا يغلق، وان نوابه يعملون في تدبير المدينة ولا يلجأون اليه الا في مهام الامور وأنه لا يمنع سائلا ، يقوم الليل ويصوم ابداً ولا يحفل بالدنيا ، فهذا الوصف يناقض ماعرفناه من تاريخ ابي العلاء ، لانا لم نعرف الرجل مالكا ولا صاحب حكم ، ولم نعرفه غنياً ولا ذا ثروة ، وانما عرفناه فقيرا قد اعتزل الناس ، وقد صفرت يده من المال ، وكثرت حوله الطلاب ، وعجز عن أداء حقوقهم فقال في اللزوميات

يزورني القوم هذ أرضه يمن ... من البلاد وهذا داره الطبس
قالوا سمعنا حديثاً عنك قلت لهم ... لا يبعد الله الا معشرا لبسوا
يبغون مني معني لست أحسنه ... فان صدقت عرتهم اوجه عبس
أعاننا الله كل في معيشته ... يلقي العناء فدري فوقنا دبس
ماذا تريدون لامال تيسر لى ... فيستماح ولا علم فيقتبس
أتسألون جهولا ان يفيدكم ... وتحلبون سفياً ضرعها يبس
مايعجب الناس الا قول مختدع ... كأن قوما اذا ماشرفوا أبسوا
قد أنفدوا في ضياع كل ماعمروا ... فكان مثل جلال البدن مالبسوا

أنا الشقى بأني لا اطيق لكم معونة وصروف الدهر تحتبس

هذه الابيات مع ما تدلنا عليه: من شهرة ابى العلاء ، وازدحام وفود العلم ببابه ، تمثل لنا فقره وضيق يده عما تحتاج اليه الشهرة من النفقات، وقد تبرأ الرجل من الثروة أكثر من مرة في اللزوميات، فكيف نوفق بين حديث الرحالة الفارسي وبين ما يدل عليه نظم الرجل ونثره وتاريخه

لهذا التوفيق وجهان يحتملهما العقل : الاول ان الرحالة وصف ما شهد في المعرة: من جاه ابى العلاء وسلطانه المعنوي، فظن ذلك ثروة وملكا . الثانى وهو ما نميل اليه ان ابا العلاء كان يملك المعرة حقاً ، وكان يحكمها بنواب يدبرون أمرها ويرجعون اليه في جلائل الاعمال فاذا شئنا ان نرجح ذلك ،فان الادلة التاريخية الثابتة لا تواتينا. ولكننا نذكر قول صالح بن مرداس له حين شفع عنده في المعرة: قد وهبتها لك

افلا يمكن ان يكون هذا اقطاعاً، وان المعرة صار أمرها من ذلك الوقت الى ابى العلاء على ان تعترف بسلطان حلب وتؤدي اليها الخراج؟ ذلك ممكن ، ولكن التاريخ لم يروه ولم ينص عليه، لا لانه روى غيره بل لانه أهمل المعرة إهمالا تاماً في ذلك العصر

كانت قصة صالح مع ابي العلاء بين سنة سبع عشرة وبين سنة عشرين واربعمائة. وكانت زيارة ناصري خسرو للمعرة بعد ذلك أي

سنة ثمان وعشرين واربعمائة. فلو انه مر بالمعرة قبل هذه القصة لكان من الحق ان نرفض خبره ولا نصغى اليه. أما وهو لم يمرها الا بعد صالح وقصته فمن الظلم للتاريخ ان نمر بهذا الخبر من غير ان نثبت هذا الاحتمال

كان أبو العلاء زاهداً عفيفاً. وكان يرى ان الانسان لا يملك في هذه الدنيا شيئاً الا ما يقوم بحاجاته كما سترى ذلك في موضعه. فهذا الرأي وهذا الخلق هما اللذان منعاه ان يستمتع بما تغل المعرة من ثروة وأوجبا عليه أن يقر الناس على ما فى أيديهم ويبقى هو على فقره الذي كان يراه غنى وثروة

ولذلك قال ناصري خسرو: ولقد قال بعض الناس لابى العلاء: إن الله عز وجل قد اسبغ عليك نعمته فلم تبيحها للناس من غير ان تتمتع بها؟ فأجاب: انى لا أملك منها الا ما يقيم أودى

وسواء صحت رواية الرحالة أم لم تصح فان في حياة ابي العلاء شيئاً يلزمنا الا نصدق ما يرويه التاريخ من فقره المدقع من غير تحفظ ولا أناة، فان في رسائله ما يدل على انه قد كان يهدي الى أصحابه الهدايا ويعين اصدقاءه بالمال. فمن أين له تلك الهدايا وهذا المال اذا لم يكن عنده فضل من الثراء ولو قليل؟ ولذلك روي القفطى ان طلابه ذكروا بحضرته يوما بطيخ حلب. قال فتكلف ابو العلاء وبعث من جاءه منه بحمل، فأكلت الجماعة وافردوا له منه شيئا لم يذقه ولم

يعرض له حتى فسد. فلو لم يكن عنده وفر ما استطاع ان يبعث الى حلب من يأتيه بهذا البطيخ . ولذلك ضيف القاضي عبد الوهاب ابن علي المالكي كما قدمنا. فمن أين له ما ضيفه به اذا كان من الفقر على ما يقولون

لقد كان بر اخواله به متصلا، وكانت تهدى اليه الهدايا فيقبلها شاكراً كما تدل رسائله على ذلك. فهذا البر من اخواله وهذه الهدايا من اصحابه كانت توسع عليه بعض ما يجد من الضيق

سيرته في بيته

١٠

لم يفصل لنا التاريخ من هذه السيرة شيئاً ولكن جملة آثار تدل على انه كان يقضي حياته وادعا مطمئناً قد أمن الناس شره، لان الزهد والحكمة وقوانينهما الصارمة لم يبقيا فيه قوة على الاذى ولا ميلا اليه ولا يحفظ لنا التاريخ انه سب أو شتم في حياته الا ما كان من قصة ذلك القارىء الذي قدمنا ذكره

ولقد كان أبو العلاء شقياً بخادمه فقال فيه

ومن عناء الليالي خادم ضغن ان يؤمر الامر يفعل غير ما امرا

وليس هذا بغريب فان المأمون لم يكذب حين قال : اذا حسنت أخلاق المخدوم ساءت أخلاق الخادم

لم تكن لأبي العلاء زوج ولا ولد فنبحث عن سيرته معهم، ولم نعرف من سيرته مع أمه شيئاً، ولكن رثاءه لها يدل على بره بها، على انه قد اتخذ الدنيا مرّة أمّا ومرّة زوجاً، فكان لها في كلتا الحالين عقوقا مبغضاً . وما اللزوميات الا مثال سخطه على هذه الام التعسة والزوج البائسة

لا نعرف ان أبا العلاء جالس الناس على مائدة، ولا نعرف انهم رأوه يأكل . انما كان اذا أراد الطعام يأوى الى نفق له، فيأكل فيه، وكان يقول: العمي عورة والواجب استتاره . ولا شك في انه كان يقضي نهاره في القراءة والدرس، وليله في التفكير والبحث، ثم في الراحة والنوم . أما طعامه فكان العدس والتين وقد نص لنا على ذلك فقال

يقنعني بُلسُن يمارس لي فان أتتني حلاوة فبلس

(البلسن :العدس — البلس : التين)

وكان لباسه غليظ الثياب من القطن وفراشه اللبد في الشتاء وحصر البردي في الصيف. وكان شديدا على نفسه يكلفها من الآلام ما لا تطيق، فربما اغتسل بالماء البارد في الشتاء وقال

أجاهد بالظهارة حين اشتو وذاك جهاد مثلي والرباط

مضى كانون ما استعملت فيه جميم الماء فاقدم ياسباط
تشابه أنفس الحشرات نفسي يكون لهن بالصيف ارتباط
لقد رقد المعاشر في تراهم فما هب الجعاد ولا السباط

اخلاقه

١١

لعل من الاطالة بعد هذا التفصيل أن نكتب عن أخلاق ابى العلاء ،فان ماقدمنا من حياته يدل على اخلاقه واضحة ويرسم خلاله جلية. ولكنا نأتي على موجز من القول فيها ، استيفاءاً لبرنامج البحث واستكمالا لنتيجته : فأول ما يظهر من الخصائص الخلقية لابي العلاء زهده واعراضه عما في هذه الحياة من الملذات،وذلك في سيرته بالمعرة تسعاً وأربعين سنة اصدق دليل على أن هذا الخلق قد كان من الصور النفسية اللازمة له. وكذلك العفة والقناعة وعزة النفس. وحسبك انه قضى حياته أو شطراً عظيما منها مقلا من المال مكثرا من الادب والعلم، فلم يتكسب بالشعر ولم يكلف نفسه مذلة السؤال . وما اضطرابه بين العراق والشام واحتجابه في منزله الى ان مات الا اثر من آثار هذه العزة التي اوجدتها الوراثة وقواها الدرس والرياضة. ومن أظهر اخلاقه ضبط النفس وقهر الشهوات ، فان رجلا ينيف على الثمانين من غير أن يتزوج ومن غير ان يرغب في النسل الذي هو أشد الملذات

استئثاراً بالنفس واستحواذاً على القلب ـ مع شدة حاجته الى ولد صالح يعينه على أثقال الحياة أو يسليه عن همومها ـ لمالك نفسه ومسيطر على شهوته وباسط سلطان عقله على ماله من حس وشعور

كان أبو العلاء رقيق القلب شديد الرحمة كثير العطف على الضعيف، وحسبك انه أمن الحيوان من تعديه على نفسه أو ولده او ثمراته. ولو أنك قرأت ما في اللزوميات من محاورته للديك والحمامة، ورثائه للشاة والنحل، وبكائه على الناقة والفصيل، ودفاعه عن النحلة والجني، لقدرت ما كان له من رقة القلب أحسن تقدير

لقد مرض أبو العلاء فوصفوا له الدجاج فامتنع، والحوا عليه حتى اظهر الرضى. فلما قدم اليه لمسه بيده بجزع وقال: استضعفوك فوصفوك هلا وصفوا شبل الاسد. ثم أبي أن يطعمه

انك لتجد في اللزوميات سخطاً على الناس غير قليل ولكنه سخط مصدره الرحمة لهم والحدب عليهم. فما كان ابو العلاء في تقريعه إياهم الا مؤثراً لهم بالنصيحة كما سنبين ذلك في المقالة الخامسة

كان أبو العلاء كريماً سخياً طيب النفس يبذل المال اذا ملكه. وليس ينتظر منه غير ذلك بعد هذا الزهد الذي التزمه. فأما وفاؤه لاصدقائه، وحفظه لودادهم فحدث عنه ولا تخش بأساً. وحسبك ان كلفت الدليل عليه ان تنظر فى سقط الزند، وفي الرسائل الى تلك القصائد،

والكتب التي بعث بها الى اهل بغداد بعد رجوعه عنهم ، والى اهل الشام بعد فراقه اياهم، لتعرف: اي قلب وفيّ ،واي فؤاد محتفظ بالوداد والحياء فطرة فطر عليها أبو العلاء فكم الف من كتب، وكم كتب من رسائل، لان الناس طلبوا اليه ذلك فلم يستطع لهم رداً .والكذب عدوه وخصمه، فما نعرف ان مؤرخاً استطاع ان يتمسك عليه بكذبة، على كثرة اعدائه ومخالفيه

كان أبو العلاء شديد الحذر من الناس ،سيء الظن بهم ، وقد ضربنا لذلك الامثال وقدمنا له الاشباه والنظائر، وعرفنا أن حياته تنتج له ذلك انتاجاً منطقياً، لانه لم يلق من الناس او اعتقد انه لم يلق منهم ومن الدهر الا شراً. لذلك كان يضطر الى المصانعة احيانا ويلجأ الى اخفاء آرائه تقية وضناً بنفسه حيث لا يفيد بذلها. فلنحتفظ بهذا الخلق، فانه سينفعنا عند البحث عن فلسفته نفعاً عظيماً

وعلى الجملة ، كان ابو العلاء أديباً ، ولكنه يمقت أخلاق الادباء ويذمها، ويطهر نفسه منها، فلا يفسق، ولا يدعو الى فسق، ويقول:

وما أدب الأقوام في كل بلدة الى المين الا معشر ادباء

ويقول أيضاً:

فرقاً شعرت بأنها لاتقتني خيراً وان شرارها شعراؤها

وكان عالماً، ولكنه يرفض خصال العلماء: من حب الملوك والامراء، والتزلف اليهم، ويقول:

توحد فان الله ربك واحد ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

وكان فقيها قارئا، ومتكلماً مناظرا، ولكنه يعرض عن اخلاق الفقهاء والقراء، وخلال المتكلمين والمناظرين، ويقول:

ورأيت دنيانا تشابه طامسا ما تستقيم لناكح اقراؤها
وتفقهت لتنالها فقاؤها وتقرأت لتنالها قراؤها

ويقول:

لولا التنافس في الدنيا لما كتبت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد

وكان يتزهد تزهد المتصوفة، ولكنه ينعي عليهم اظهار القناعة، واخفاء الجشع، ويقول:

جند لابليس في بدليس آونة وتارة يحلبون العيش في حلبا

ربما كان في أخلاق ابي العلاء عيوب، ولكن ما وصل الينا: من شعره ونثره وتاريخه، لايمثل لنا الا خيراً: ولسنا نتكلف استنباط هذه الفضائل ونسبتها اليه، كما يفعل الذين يتعصبون لمن يترجمون: من الادباء والعلماء، وانما نأتي بما وجدنا في آثار الرجل ونعتقد انا لو حاولنا ان نستنبط من تراثه خلقا مذموما لكنا متكلفين

ملطية

١٢

ليس بنا حاجة الى أن نثبت ان ابا العلاء كان فطنا ذكياً، فليس ماقدمنا من أول هذه المقالة الا برهانا على ذلك، ولقد اشتهر الرجل بين أصدقائه واعدائه بقوة الذاكرة، وسرعة الحفظ حتى رووا في ذلك الاعاجيب التي لاشك في ان المبالغة فيها قد عملت عملا كثيراً. فزعموا انه حفظ مناجاة فارسية سمع لفظها ولم يفهم معناها، وزعموا انه حفظ حساباً طويلا كان بين تاجرين، فلما فقد احدهما وثيقته املاها عليه أبو العلاء بعد زمن طويل، وزعموا ان رجلا من اهل اليمن وقع له كتاب في اللغة قد ضاع أوله، فعرضه على طائفة كثيرة من اهل العلم، فكلهم لم ينفعه ولم يدله على اسم الكتاب، فلما عرضه على أبي العلاء انبأه باسمه واسم صاحبه، واملى عليه ماضاع منه. ولهم من امثال هذه الروايات شيء كثير. و لامر الذي لا ريب فيه، ان الرجل كان نادر الذاكرة، يحفظ ما يسمع، ان لم يحل بينه وبين ذلك حائل من غموض او طول شديد. وانباء الحفاظ من العرب والمسلمين، ومن عميانهم خاصة، متظاهرة لا حاجة الي روايتها. وانما أبو العلاء رجل من هؤلاء الناس الكثيرين الذين اشتدت فيهم ملكة الحفظ والاستظهار

كانت لابي العلاء ملكة الشعر، والكتابة، وتكلف البديع. وذلك ما نبحث عنه في المقالة الثالثة

شيخوخته

١٣

هرم أبو العلاء، واصابته الشيخوخة. ولكنا لا نعرف انها اضعفت ملكة من ملكاته العقلية والخلقية. وانما قضى الرجل حياته ثابت النفس، راجح الحلم، مصيب الفكر، قوي العقل، صادق الذوق معتدل المزاج الى ان اصابه المرض الذي مات فيه

على ان ابا العلاء قد وصف شيخوخته في رسالة كتبها الى ابي الحسن محمد بن سنان، وقد أنبأه برغبة السلطان اليه في اختصار كليلة ودمنة. فقال بعد كلام كثير: واحسبه ادام الله قدرته يحسبني على ما يعهد من القوة والصبر، ولست كذلك. الآن علت السن، وضعف الجسم وتقارب الخطو وساء الخلق وعطلت رحا لم تكن تجعجع، ولكن تهمس كنت أقصر طحنها على نفسي واتقوى به دون غيري، ولم يكن لها ضمان، ولكن فجع بها الزمان، ولم يبق الا ان يخلو مكانها العامر، فيصبح كأنه المحل الدامر، فأما المنفعة بها فقد انقضت وانقرضت وان تشبه بها في الظعن اخواتها، صار لفظي من أجل ذلك مشيناً، وجعلت سين الكلمة شيناً فلم يفهم مني سامع ما أقول فاذا قلت العسل مشى

الذئب ظن اني أقول العشل بالشين المعجمة ولا أعلم ان في كلامهم هذه الكلمة. وانما هذه الرحى وأترابها في التتابع الى الرحلة كما أنشد أبو زيد سعيد بن أوس

يا ربة العير رديه لوجهته لا تظعني فهيجي الحي للظعن

فان وقع يوماً من الدهر اليه شيء مما أمليه فوجد فيه السينات شينات فليعلم ان ذلك كما ذكرت وان الذي كتب سمع ولم يفهم) فترى ان كلام الرجل في شيخوخته لم يضعف ولم يختل ولم يزد الا متانة ورصانة وثباتاً

قال القفطي: وقد تنبأ ابن بطلان الطبيب بوفاة أبي العلاء قبل موته بقليل. وكان ابن بطلان يألف ابا العلاء وكان بالمعرة اذ ذاك، فحدثه بعض الطلبة ان ابا العلاء قد املى عليهم شيئا فغلط فيه، فتنبأ ابن بطلان بان ذبالته قاربت الذبول، لان من كان كأبي العلاء في قوة العقل وذكاء القلب وحصافة الرأي لا يدركه الخطأ فيما يملي الا اذا اضطربت قواه وفسد مزاجه

وفاته

١٤

في اليوم العاشر من شهر ربيع الاول سنة تسع واربعين واربعمائة للهجرة وسنة ثمان وخمسين والف للمسيح اعتل ابو العلاء فلبث ثلاثة

أيام مريضاً ، ثم مات يوم الجمعة الثالث عشر من هذا الشهر . فخمدت تلك القوة التي طالما صدر عنها من الآثار النافعة ما أرضى قوماً وأسخط آخرين

خمدت تلك القوة فظفر أبو العلاء بما كان يرجوه ويحرص عليه من فراق الحياة ورجوع جسمه الى عنصره الذي منه ائتلف وتركب

وقد روى ياقوت عن غرس النعمة : انه لما كانت المناظرة بين أبي العلاء وبين داعي الدعاة بمصر في ذبح الحيوان ، أمر داعي الدعاة بأن يؤتى بابي العلاء الى حلب ، ويخير بين حياة يزينها الاسلام الصحيح وتذهب بأثقالها الثروة الموفورة . أو قتل يريحه ويريح الدين من شره . فلما علم أبو العلاء ذلك شرب السم فمات . ومن الواضح ان ليس لهذه الرواية ظل من الصحة لان موت ابى العلاء معروف ولان المناظرة بينه وبين داعي الدعاة قد انتهت بالصمت وبالسكوت ، وهى تدل على ان داعي الدعاة قد كان يجل ابا العلاء ويكبره . لذلك اسرع ياقوت الى رفض الرواية وتكذيبها . والعجب ان المستشرق الفرنسي سلامون لم يفهم ما كتب ياقوت ، فظن انه صاحب الرواية واجتهد في الرد عليه ، ولو أنه فطن لما كتب ياقوت لاراح نفسه من عناء كثير

وصية

١٥

زعم المؤرخون أن ابا العلاء قال لبني عمه في مرض موته: اكتبوا عني فأخذوا الدوى والاقلام فأملى عليهم غير الصواب، وكان القاضي ابو محمد على التنوخي حاضراً فقال لهم: احسن الله عزاءكم عن الشيخ فانه ميت. قالوا فمات في غد ذلك اليوم. أما نحن فما نستطيع أن نجزم بهذا الخبر، لانا لا نعرف أن ابا العلاء قد كان له في هذه الحياة غرض يجب ان يوصى بتحصيله والسعي اليه، بل كان ابو العلاء يهزأ بالرجل يوصى قبل موته وذلك في غير موضع من اللزوميات:

فأما الحث على الفضيلة والنهي عن الرذيلة فقد شفى نفسه منهما في كتبه المختلفة وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح فلسنا نشك ولا يشك المؤرخون في أن الرجل أوصي أن يكتب على قبره

هذا جناه أبي علي وما جنيت علي أحد

وسنعرض لهذا البيت عند الكلام على فلسفته

شكاة

١٦

قال الحافظ السلفي: أخبرني أبو محمد عبد الله بن الوليد بن

غريب الايادي انه دخل مع عمه على أبي العلاء يزوره فرآه قاعداً على سجادة لبد وهو شيخ ، قال : فدعا لى ،ومسح على رأسي وكنت صبياً .قال كأني أنظر اليه الساعة،والي عينيه: احداهما بارزة والاخري غائرة جداً وهو مجدر الوجه نحيف الجسم

وليس يحفظ التاريخ الصحيح لنا من وصف ابي العلاء غير هذا الخبر ، ولكن أحاديث الرجل بعد موته وما كان يوصف به : من الايمان مرة ، والزندقة أخرى قد تركت له صورتين خياليتين، أوحت بهما احلام الليل على رجلين مختلفين . أحدهما القاضي أبو عمرو عثمان ابن عبد الله الكرجى ، فقد روى عنه القفطي : أنه كان وهو طالب يقع في دين أبي العلاء ،فرأى فيما يرى النائم كأنه في مسجد،وكأن على صفة فيه رجلا شيخاً ضريراً بادنا والى جانبه غلام يشبه أن يكون قائده ، قال القاضى ؟ وكنت واقفاً تحت الصفة في نفر من الناس ، وهذا الشيخ يتكلم كلاما لم أفهمه ، ثم التفت الى وقال : ماحملك على الوقيعة في ديني ؟ وما يدريك لعل الله غفر لى ، قال فاستحييت منه وسألت عنه ، فقيل هو أبو العلاء . فلما أصبحت أقلعت عن النيل منه ، واستغفرت الله لي وله . ثم مضى على ذلك دهر ، وأنسيته ، ودخلت المعرة ، فزرت مسجدها للصلاة ، فاذا هو كما رأيت في النوم واذا الصفة كعهدي بها ، وعليها راهب يضفر البردي ، فتقدمت

اليه وسألته عما يصنع ، فعرفت أنه يعمل الحصر لهذا المسجد ، وكان على ديره أن يؤدي للمسجد هذا العمل كلما احتاج اليه ، قال : فلما أذكرني ذلك ما أنسيته سألت عن قبر أبي العلاء ، فزرته فاذا هو مهمل في مكان أشعث ، وقد نبتت عليه الخبازي ثم جفت فقرأت عنده واعتذرت اليه ، وذلك في أوائل القرن السابع

الثاني غلام سماه غرس النعمة أبا غالب ، قال : وهو من أهل الخير والصلاح ، وله فقه ودين ، فلما ورد الينا الخبر بموت أبي العلاء تذاكرنا ما كان له : من كفر والحاد ، فأتينا من ذلك على شيء كثير ، والغلام يسمع ، فلما كان الغد أقبل الينا يحدثنا . أنه رأى فيما يري النائم شيخاً مكفوفاً على عاتقيه حيتان ، رأساهما الى فخذيه ، فهما ترفعان رأسيهما الى وجهه . فتقطعان منه قطعاً تزدردانها ، والشيخ يصيح ويستغيث فسأل عنه ، فقيل : هو أبو العلاء المعري الملحد قال غرس النعمة ، فعجبنا من ذلك واستظرفناه . هاتان الصورتان الخياليتان ، ليستا في الحقيقة الا مثال ماتصور صاحباهما حين سمعا حديث أبي العلاء ، فهما لا تمثلان الرجل ، وانما تمثلان رأى الناس فيه

احتفال الناس برثائه

١٧

اتفق ياقوت والقفطي والذهبي والصفدي وابن خلكان على

ان أبا العلاء لما مات انشد رثاءه على قبره شعراء لا يقل عددهم عن سبعين شاعراً .منهم تلميذه أبو الحسن علي بن همام الذي قال فيه من قصيدة :

ان كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من جفني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك[1] تضمخ منه سمعا أو فما
وأرى الحجيج اذا أرادوا ليلة ذكراك أخرج فدية من أحرما

ومنهم أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري الذي رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها:

العلم بعد أبي العلاء مضيع والارض خالية الجوانب بلقع
أودى وقد ملأ البلاد غرائباً تسري كما تسري النجوم الطلع
ماكنت أعلم وهو يودع في الثرى أن الثرى فيه الكواكب تودع

---

(١) فى أكثر الكتب التي روت هذه الابيات جاء هذا الشطر بهذه الصورة (مسك فسامعه تضمخ أو فما) الا نسخة خطية من ابن خلكان جاء به كما اثبتناه وعنها أخذ طابع اللزوميات بمصر سنة ١٨٩١ م

وفى رسائل ابى العلاء طبع بيروت ١٨٩٤م وردت (مسك فسامعة تضمخ أو فما)

وفي سقط الزند طبع بولاق (مسك مسامعها تضمخ أو فما)

فهذا كله يدل علي ان العبث قد كثر بلفظ الشاعر ولم يبق منه الا هذه الصورة المشوهة تمثل هذا المعنى الذي أشار اليه وهو ان ذكر ابى العلاء طيب لمن سمعه و نطق به

جبل ظننت وقد تزعزع ركنه ... ان الجبال الراسيات تزعزع
وعجبت أن تسع المعرة قبره ... ويضيق بطن الارض عنه الاوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته ... مااستكثرت فيه فكيف الادمع
تتصرم الدنيا وتأتي بعده ... امم وأنت بمثله لاتسمع
لاتجمع المال العتيد وجد به ... من قبل تركك كل شيء تجمع
فان استطعت فسر بسيرة أحمد ... تأمن خديعة من يغر ويخدع
رفض الحياة ومات قبل مماته ... متطوعا بأبر مايتطوع
عين تسهد للعفاف وللتقى ... ابدا وقلب للمهيمن يخشع
شيم تجمله فهن لمجده ... تاج ولكن بالثناء يرصع
جادت ثراك أبا العلاء غمامة ... كندى يديك ومزنة لا تقلع
ماضيع الباكي عليك دموعه ... ان الدموع على سواك تضيع
قصدتك طلاب العلوم ولا ارى ... للعلم باباً بعد بابك يقرع
مات النهى وتعطلت اسبابه ... وقضى التأدب والمكارم أجمع

ولم يرو ياقوت واصحابه من رثاء الشعراء لابي العلاء شيئاً كثيراً ولو قد فعلوا لاعانتنا هذه المراثي على فهم رأي الناس فيه ، فانها تنم من غير شك بما تضمر قلوبهم : من حب للرجل او بغض . فرب مبغض له رثاه ، ورب محب له أعرض عن رثائه . ولا شك في ان أكثر هؤلاء الشعراء قد كان من طلاب ابي العلاء ، فقد حدثنا

ناصري خسرو انه كان في جميع أوقاته يحيط به مائتان من الطلاب. ولا شك أيضا في ان طائفة غير قليلة من أهل حلب وحماه وتلك النواحي ، قد اقبلت تشارك أهل المعرة في حزنها على شاعرها وحكيمها. وما أسرع ما يتسامع الناس بموت رجل كأبي العلاء ، وما أكثر ما يحتشدون حول نعشه ويشيعونه الى قبره ، ومنهم الباكي عليه ، والشامت فيه

كم شامت بي ان هلكت وقائل لله دره

والآن وقد صحبنا أبا العلاء من مولده الى مماته ، ثم شيعناه الى قبره ، وسمعنا الشعراء يرثونه ويبكونه ، فقد آن لنا أن نثوب الى انفسنا ونتحدث عنه كما يتحدث من يريد ان يعتبر عن ميت قد فارق الحياة. لا نريد أن نسلك طريق الوعظ والتذكير بالآخرة ، فان الوعظ والذكرى ليسا من غرض هذا الكتاب . وانما نريد أن ندرس آثار الرجل درساً مستوفي لنعرف : أكانت حياته خليقة بالخلود . وانما يكون ذلك بدرس أدبه وعلمه وفلسفته ، ونحن بادئون بدرس أدبه منذ الآن